الفراغُ
أسبابُه - نتائجُه - علاجُه

د. محمد متولي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وبعد: فهذه كلمات عما تعانيه أمتنا من فراغات تؤثر على حاضرها ومستقبلها، وقد تناولتها مبينا أسبابها ونتائجها وآراء بعض المفكرين في علاجها، قاصدا من وراء ذلك أن تكون لبنة في طريق التوعية بالطريق الأقوم إلى نهضة الأمة الإسلامية، والمبحث الأول منها عن:

الفراغ الديني وأسبابه ونتائجه

وقد استقصيت بعض أسبابه وبعض نتائجه، وقد يكون هناك غير الأسباب وغير النتائج يمكن أن تضاف إلى ما استنتجته في دراستي، فالتصورات حول الإصلاح يكمل بعضها بعضا.

ثم فراغات الأهداف والرؤوس والأوقات وبعض أسبابها ونتائجها، وأخيرا بعض الاقتراحات للعلاج.

ولا أدعى أنني قد بلغت الكمال أو قاربته، وقد يتداخل بعض ما أراه في بعض ولكن حسبي أهمية الموضوع لأمتنا وشبابها.

والله أسأل التوفيق والرشد والسداد

المبحث الأول

الفراغ: أسبابه، ونتائجه، وعلاجه

تعني كلمة الفراغ أساسا الخلو والخواء، فإذا قلنا: وعاء فارغ فمعناه أنه لا يحوي شيئا، وإذا قلنا: قلب فارغ فمعناه إقفاره من الحب أو العقيدة أو المثل الأعلى وعدم سيطرة الدين على سلوكه فردا كان أو مجتمعا، والحقيقة أن هناك تجاوزا في وصف الناس بالفراغ، فلا يوجد قلب فارغ إلا إذا أهدرنا ما يشغل الناس مما يضر ولا ينفع، فمن لا يمتلىء قلبه بالنافع فلا شك أنه ممتلىء بالضار، وكما قيل: إن الناس إن لم يجمعهم الحق شعبهم الباطل...

وقد يكون شغلهم بالضار أعنف من شغلهم بالنافع، ونحن نرى شدة تمسك اللاهين والمنحرفين عن الجادة بلهوهم وانحرافهم.

وهذا الفراغ في الحقيقة بلية كبرى أصابت المسلمين أو شبابهم بالذات، ونظرة بصيرة نافذة أو استقراء واستبيان عملي لما يدور في أذهان كثيرين ـ ترينا أن أغلبنا ليس لديه خطة محددة لمستقبله، ولا منهج مدروس ليومه وغده الضائع من وقتنا وقوانا وأموالنا أكثر مما ننتفع به، فكم ساعة نعمل، وكم صفحة نقرأ، وكيف نستثمر هذه النعم في بناء حضارتنا؟ إن أعداء المسلمين أكثر وعيا وإدراكا لما نملكه وما يمكننا صنعه لو صففنا أقدامنا على الطريق السوي، لذا فهم يحاولون جاهدين الحيلولة بيننا وبين ذلك بإغراقنا بحوائجنا من بلادهم، وتلهينا بالمسكرات بشتى أنواعها، وتضييع وقتنا بشرائط الفيديو بشتى اتجاهاتها من المصارعة إلى الجنس إلى نوادي العراة... الخ. وهم بهذا يضمنون أن نبقى تابعين مضيعين، يمتصون أموالنا وثرواتنا، وتتخم بنوكهم بأرباح يجنونها، كما يستأثرون بالناجحين والعلماء من شبابنا.

وهناك أجهزة ساهرة لا تنام كل همها أن يدوم هذا الحال، وهم يعلمون عنا كل صغيرة وكبيرة، بل ويعرفون اتجاهات الرأي العام لدينا إلى أي اتجاه صائرة، وماذا يشغلنا وماذا نعرف؟

ويعتبر ما يحدث صراعا بين قوتين غير متكافئتين، الأولى: تجمع كل أعداء الإسلام والمسلمين بكل ما يملكون من فكر وأجهزة إعلام ومخابرات... إلخ والثانية: قوة الدعوة إلى الله بمجهوداتها الفردية أو الجماعية المتواضعة في مواجهة الأولى، والتي تعمل جهد طاقتها ولكنها طاقة غير كافية لمواجهة جميع التيارات الوافدة ووراءها الصهيونية والشيوعية والصليبية العالمية، بالإضافة إلى ما تلعبه الأقليات الدينية في قلب الأمة الإسلامية سواء عن طريق التدريس أو التجارة أو الطب والصيدلة، وكلها ميادين خطيرة وذات تأثير بالإضافة إلى ما يقع على التجمعات الإسلامية من خطر. وسوء النية دائما يسبق الحكم عليها، ولو أننا حاولنا تقصى ألوان الفراغ الموجودة في بلادنا لوجدناها تدور حول

أولا: الفراغ الديني

ثانيا: الفراغ الفكري

ثالثا: الفراغ النفسي

رابعا: الفراغ الزمني وهو نتيجة لما سبقه.

الفراغ الديني أسبابه ونتائجه:ـ

ليعذرني القارىء إذا خصصت الفراغ الديني بعنوان وغيره بعناوين أخرى فليس من قصدي أن هذه الألوان من الفراغ لا يتصل بعضها ببعض، فأنا أعلم أنها متواصلة وكل منها يؤثر في الآخر، ولكن الفراغ الديني أخطرها، فالقلب إذا فرغ من العقيدة فسد كل شيء في الإنسان سواء أكان النفس أو الزمن والعمر أو الخلو من المثل الأعلى، وإذا أقصي الدين عن التوجيه فإن النفس البشرية تضيع في خضم المبادىء الوافدة والشهوات الملحة. ولابد لانصراف الناس عن الدين سلوكا والاكتفاء بالانتساب له قولا أو شكلا من أسباب، ومن هذه الأسباب:

١ ـ عزلة الإسلام عن قيادة الحياة العامة:

كان الإسلام راسخا في كيان المسلمين الأوائل، لأنه كان نظاما حيا يحكم الجماعة في شتى أنشطتها، وبذلك عاش سلفنا في جو إسلامي بحت. الحكم فيه لشرع الله، والاقتصاد محكوم بشرع الله، والأسرة تعيش بمقتضى شرع الله، فالمسلم أينما يمم وجهه لا يجد أمامه إلا طريقا واحدا، هو طريق الإسلام، وحكما واحدا هو حكمه، وكانت الحدود تشكل قوة ردع شديدة تمنع الجريمة، فعاش المجتمع ينعم بنعمة الأمانة والأمين، كما كانت الحدود مما يعطي للمجتمع الإسلامي ميزة التميز على غيره من المجتمعات في شرعه الذي يحكم أفراده به، مما جعل المجتمع يحس بنور الدين ووهجه في كل ما يأتيه أفراده أو يذرون.

ومما لا شك فيه أن تمثل الإسلام في جماعة هو أعظم دعوة ودعاية له، فأما إذا لم يتمثل في جماعة فإن الناس بين أمرين: إما أنه لا يمكن تمثيله في مجتمع لمثاليته كما قال بعض المستشرقين عن الإسلام، وإما لأن الجماعة لا تقدر على تطبيقه وتحمل تبعات نظام يقوم عليه، لأنها تؤثر الهبوط على السمو والرخاوة على القوة ولا تقدر عزائم رجالها الخائرة على تحمل عظائمه ومكرماته، وهذا يجعل المسلمين عرضة لكل ناعق وأسرع استجابه لدعوات لو أن الإسلام كان يقود الحياة ما كان لها وجود، وكما قيل: «ليس من عادة البشرية أن تستجيب لمنهج مقروء أو مسموع ما لم يتمثل في صورة «مجتمع» يعيش بهذا المنهج، ويعيش له، وتتمثل فيه خصائصه ومزاياه. . . .

وألف كتاب عن الإسلام، وألف خطبة في مسجد أو قاعة أو ميدان، وألف فيلم في الدعاية للإسلام، وألف بعثة من الأزهر أو غير الأزهر في كل مكان.

كل أولئك لا يغني غناء مجتمع صغير يقوم في ركن من أركان الأرض يعيش بمنهج الإسلام، ويعيش لمنهج الإسلام، وتتمثل فيه خصائص هذا المنهج، وتتمثل فيه صورة الحياة في الإسلام وختاما تجسيم المنهج الإسلامي في جماعة تعمل به ومجتمع يحيا عليه. . . وأعداء الإسلام. . . يعرفون هذه الحقيقة جيدا، وهي تمثل الإسلام في مجتمع، ومن أجل معرفتهم العميقة بهذه الحقيقة هم قد يسمحون بنشر

الكتب عن الإسلام ـ في حدود ـ وبإلقاء الخطب عن الإسلام ـ في حدود ـ وبعرض الأفلام عن الإسلام ـ في ندرة.

وبإرسال البعثات للإسلام ـ في رقابة ـ ولكنهم لا يسمحون أبدا ـ بما لديهم من سلطات عالمية ضخمة خافية وظاهرة ـ بقيام مجمتع إسلامي ـ ولو صغير ـ في ركن من أركان الأرض ـ ولو في جزيرة بالمحيط.

ذلك أنهم يعرفون أن هذه الوسيلة الجدية الوحيدة لوجود الإسلام، وهم قد عانوا من وجود الإسلام طويلا، إذ حال بينهم وبين أهدافهم الاستعمارية الاستغلالية للوطن الإسلامي، وللمجتمع الإسلامي ـ وما صدقوا أن أجهزوا ـ كما يتصورون ـ على هذا الجبار، فهم يفزعون من شبحه ولا يريدون له «الوجود» الفعلي بحال من الأحوال»[1] وحتى يبقى المسلمون بعيدين عن التجمع على تحكيم الإسلام يجب على أعدائه أن يحيكوا سلسلة من المؤامرات لا تنتهي حلقاتها ويعمل في سبيلها جيوش من البشر ومنهم مسلمون، ويشاع على الدوام أن النظام الإسلامي قديم وقاسٍ، ويحجز على الحرية الشخصية، كما أن عليهم أن يبقوا المجتمع الإسلامي ممزقا لا يلتئم له شمل، جناح منه ينتمي إلى الشرق وآخر ينتمي إلى الغرب، ويصبح الولاء لمراكز التوجيه، والتنادي بالجنس أو الأقليم، والتغني باسم الوطن لا بإسم الاسلام هو التيار الغالب على الناس، وإيجاد بدائل عن الإسلام الصحيح يتلهى الناس بها باسم التصوف أو البابية والقاديانية ودعوات المهدية الواحدة تلو الأخرى. وكل شيء مباح إلا أن يعود الإسلام الصحيح، وقد دخل النقاش حلقات الدرس عن العرقية والإقليمية، وجدوى هذا العلم أو ذاك، بل أفسحت وسائل الإعلام صدور صفحاتها وشاشاتها لأقوام لا يحسنون خمس جمل دون خطأ، وفي الوقت نفسه يحال بين الفاقهين عن تأدية واجب النصح والتعليم للأمة. إن منهج الله وجد ليسود ويعمل به لا لينسى أ ينسلخ منه، وقد توعد الله كليهما أي الناسي والمنسلخ، فأما

(١) الإسلام ومشكلات الحضارة المرحوم الاستاذ سيد قطب ١٨٠ : ١٨١ بتصرف. دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي) ١٩٦٢ دون إشارة إلى رقم الطبعة.

الناسي فيقول الله عز وجل «ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم» وأما المنسلخ فيقول عنه ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾[1].

وإذا ترك الناس الصراط الواحد ضلوا في سبل عدة ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾[2].

٢ ـ قلة الدراسات الدينية المخلصة الجادة

كثير من الدراسات يبدو فيها التعجل في الوقت الذي تكون فيه محتاجة إلى تقليب وجهات النظر المختلفة، لترجيح أرجحها، أو لتبيين خطأ مخطئها، أو للتعرف على مراجع أكثر، وقد كان سلفنا يمضي الواحد منهم خمسة عشر عاما يؤلف كتابا واحدا، لذا فإن الكتاب كان يأتي بصورة كاملة أو أقرب إلى الكمال، أما الآن فهناك سباق في الكتابة حول موضوعات استهلكت في الكتابة، أو نشر الكتاب الواحد تحت عناوين مختلفة، أو الاتفاق على نشر الكتاب بأسماء عدة مؤلفين، وأذكر أن عهد إلي في المكتب الفني لنشر الدعوة الإسلامية بالقاهرة بوضع تقرير عن بعض الكتب لأحد المؤلفين، ولما قلبت الكتابين عجبت لأنه لم يتغير سوى عنوان الكتاب، وكل الاختلاف أن بعض الفصول قدم والبعض الآخر أخر، وطبع الكتاب مرة في القاهرة، وأخرى في بيروت.

كما أن كثيرا منا يزج به إلى المطابع عليه سمة (مودة) الأسلمة، أو كما يقال (ما حدش أحسن من حد) أو اشمعنى كما يقول العوام، ولذلك تأتي الدراسات فجة وغير عميقة، ويختار لها عناوين شديدة البريق، وهناك من يقحمون أنفسهم في الكتابة عن الإسلام وهم غرباء عنه، وفي غمرة ذلك لا تجد الكتابات الجيدة من

---

(١) الأعراف: ١٧٥.

(٢) الأنعام: ١٥٣

يُعرِّف بها حق التعريف، إما لأن أصحابها فارقوا الحياة أو معروفون في قطر من أقطار الإسلام دون الأقطار الأخرى، ومن الطبيعي أن ينشأ عند الناس لون من الضجر لأنهم عندما يقرأون كتابا لا يستفيدون منه، فهذا ينشيء عندهم لونا من الانصراف عن القراءة، وعندما تكتشف سرقات الكاتب تنعدم ثقة الناس به، وحبذا لو عملت الحكومات على التعرف على الأعمال الجيدة ونشرها على نطاق واسع، أو قام المحسنون من أبناء الأمة الإسلامية بطبعها ونشرها وتوزيعها على راغبي العلم مجانا، ويجب أن يدخل دائرة ازاحة الفراغ الديني من نفوس الناس الصحافة والإذاعة والتليفزيون وغيرها من وسائل الإعلام.

وتكون الكتابة أو التعريف على مستويين.

١ ـ مستوى الأميين، وهؤلاء في حاجة إلى تبسيط المعلومة إلى أقصى درجات التبسيط، والصبر على ذلك حتى يمكن إعادتهم إلى الإسلام النقي، ويمكن أن يستجيبوا لو صح التوجه وهم كثرة كاثرة يمكنها أن تفيد في خدمة الإسلام والمسلمين.

٢ ـ الطائفة المثقفة، والكتابة لهم تحتاج إلى لون آخر من التعمق والتخصص وسعة المساحة حتى لا تقتصر الكتابة على مجال أو مجالات دون مجالات أخرى يحتاج المثقفون إليها، على أن يكون هناك من يَجْلون لهم سبق الإسلام ما عداه وموائمته لروح العصر وعدم قصوره في إمداد الناس بكل ما هم محتاجون إليه.

ومن الأبواب الهامة ما تنشره الجرائد حول أحدث ثمرات المطابع، أو ما تذيعه الإذاعة عن «كتاب وقارىء» أو «أحدث ما قرأت» ولا مانع من أن يصنع التلفزيون ذلك

وحبذا لو أن أئمة المساجد كلما قرأ الواحد منهم كتابا جيدا وجه أنظار المصلين إليه، كما يفعل ذلك أساتذة المدارس والجامعات ويتواصى المسلمون بتوجيه أنظار بعضهم بعضا إلى الكتب الجيدة.

٣ ـ فقدان القدوة الحسنة

من أبرز أسباب الإصلاح تلقي الخلف عن سلفه أو الصديق عن صديقه أو الجار عن جاره بعض ما هو عليه من صفات حسنة، فالأخلاق تنتقل كما تنتقل الأمراض بالعدوى، ومن أبرز أسباب فساد الناشئة ولهوهم وانصرافهم عن الدين سوء القدوة، ومن المؤسف أننا لا ندرك ما يؤدى إليه التقليد ومحاكاة الغير عند الراشد من نتائج قد تكون صالحة أو فاسدة. فالمقتدي بفارغ يصير شبهه، والمقتدي بعامل يصير مثله.

والواقع أن كثيرا من الآباء لا يواظبون على إقامة الشعائر الدينية أو جزء منها في بيوتهم، ولا يمسكون المصحف أو كتب السنة أو بعض كتب العلم الديني أمام أبنائهم، ولهذا لا يجد الأبناء التشجيع الكافي على العبادة والتعلم وحسن الخلق والقراءة.

ومثل هذا يقال عن بعض المدرسين سواء من حيث الثقافة الدينية، أو من حيث السلوك، بالإضافة إلى ما يمارسه بعض الآباء من انحرافات تتعلق بالتدخين أو الرشوة أو الاستغلال. . . . إلخ. فإن هذا ينشىء أبناءهم على ما اعتادوه ورأوه، كما أن القدوة في المجالات العامة في الوزارات والمصانع والإدارات باتت شبه معدومة، وأصبح من يريد النظافة أو براءة الذمة نادرا وإن كان موجودا، وبرد في حس كبار الموظفين مسئوليتهم عمن يليهم ويقلدهم، وقل مثل ذلك عن كبيرات النساء وزعيمانهن ومن يقلدهن غيرهن

«والحقيقة الثابتة أن الصفات الطيبة والمناهج الحسنة والأفكار الراشدة لا تقوم بنفسها لأنه لا وجود للخير غير متلبس بنفس إلا في عالم الخيال، وإنما تقوم وتتجسد القيم وتصبح واقعا حين تتلبس ببشر يترجمها إلى سلوك عملي، فتتحول إلى حقيقة متحركة، وقد خلق الله للاقتداء مثالا شامخا تجسدت فيه الكمالات كلها، وجعل السير على منواله ممن يرجون الله واليوم الآخر ويذكرون الله كثيرا ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ

فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[1].

وقد كمل الله هذه القدوة بنفسه، وقد ورد في الأثر «أدبني ربي فأحسن تأديبي»[2] وتقول عائشة رضي الله عنها: كان خلقه القرآن[3] أي أنه كان قوة عظمى تكامل فيها الناموس والتقت الأرض بالسماء فهو سراج وشاهد ونذير وداع إلى الله بإذنه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾. أي شاهد لله بالوحدانية ومبشر للمؤمنين بجزيل الثواب ونذير للكافرين من وبيل العقاب.[4] ويجب على المربين لفت نظر أبنائهم إلى ضرورة الاقتداء به صلوات ربي عليه وتسليماته وتحويل سنته إلى عمل قائم... وكما قيل: إن الناس ملوا القول بلا عمل، وعمل دقيقة خير من قول ساعة، وعمل رجل في ألف رجل خير من قول ألف رجل في رجل، وأن صلاح المؤمن هو أبلغ خطبة تدعو الناس إلى الإيمان، والخلق الفاضل هو السحر الذي يجذب الأفئدة ويجمع القلوب.

أتظن أن جمال الباطن أضعف أثرا من وسامة الملامح؟ كلا إن طبيعة البشر محبة الحسن والالتفات إليه، وأصحاب القلوب الكبيرة لهم من شرف السيرة وجلال الشمائل ما يبعث على الإعجاب بهم والركون إليهم.

ومن ثم فإن الداعية الموفق الناجح هو الذي يهدي إلى الحق بعمله وإن لم ينطق بكلمة، لأنه مثال حي متحرك للمبادىء التي يعتنقها.

وتناقض الفعل والقول أكبر شغب يمس قضايا الإيمان ويصيبها في الصميم، ولا يكفي ليكون الإنسان قدوة التظاهر بالصالحات فإن التزوير لابد منكشف، لأن

---

(١) الأحزاب: ٢١

(٢) تمييز الطيب من الخبيث للابن الدربيع قال: أخرجه العسكري في الأمثال عن علي مرفوعا وسنده ضعيف ومعناه صحيح ـ ط محمدعلى صبيح ١٩٦٣.

(٣) رواه مسلم ووهم الحاكم في قوله إنهما لم يخرجه وتعليق الحافظ القرافي على الاحياء جـ٢ ص٣٥٨ ط التجارية

(٤) ٤٥، ٤٦ من سورة الأحزاب ملخص تفسير ابن كثير حـ٣ص١٠٣

النفس المتحركة بروح الإيمان كالآلة الدائرة بما يعمر خزائنها من وقود، أما النفس المحرومة من هذه الروح فهي كالآلة التي تدفع باليد حينا، ثم لا يلبث أن يغلبها العطب فتتوقف وتسكن.

والطامة الكبرى إنما تكون من المنافقين المتظاهرين بالتدين أو المتهاونين الذين يلبسون مسوح التقوى.

إن التدين الحق صورة لجوهر النفس بعدما استكانت لله ونزلت على أمره، واصطبغت بالفضائل التي شرعها، وترفعت عن الرذائل التي حرمها، واستقامت على ذلك استقامة تامة. هذا التدين وحده هو الذي نلتمس منه الأسوة، ونقبس منه الهدى، والمؤسف أن هذا التدين نادر جدا.

وإذا نكب الدين بكثير من مصطنعي التدين فإن المجال واسع لشيوع الفسوق والإلحاد وقد يدفع هذا إلى إشاعة الثقة بالكفار، وقلة الثقة بالمسلمين وهي ظاهرة أتت من إساءة المسلمين أنواع المعاملة رغم مظاهر التدين في كثير من الفاسدين. وسلوك المسلمين الأولين أفرادا أو أمة كان أكبر سبب لدخول أعدائهم في الإسلام، وحين نتابع أوصاف المسلمين الفاتحين كما شرحها المنصفون من المستشرقين نجد أن الجماهير رمقت حملة العقيدة الظاهرة بشيء من الدهشة، ورأت فيهم نماذج أخلاقية للفضل والعدل، فلم يلبثوا إلا قليلا حتى زاحموهم عليها ونافسوهم فيها، والإعجاب بالمسلمين أفرادا أو دولة وحده السبب الفعال في تزاحم الخاصة والعامة على الإسلام، وارتضائهم له دينا، والإعجاب لا يثبت في النفس خبط عشواء.

أتظن أن الأخلاق الرضية تعجب بالأخلاق الرديئة؟ أتظن العقول النضرة تعجب بالعقول الخرفة؟ أتظن المتقدم في أخلاقه ومشاعره يعجب بالمتخلف في هذا، والمعجب بإنسان قد يذوب فيه، وهو ما حدث عندما ذاب الناس في الإسلام عقيدة ولغة وخلقا[1].

---

(١) الشيخ محمد الغزالي في مع الله ودراسات في الدعوة والدعاة. ص٢٩٧ : ٣٠١ بتصرف ط دار الكتب الحديثة ط خامسة ١٩٨١.

ذلك لأن القدوة تبنى على الاحترام والثقة، وما لم يكن للشباب في قرارة نفسه احترام لرجل الدين وثقة بعلمه وخلقه قولا وعملا لا يمكن أن يتخذ منه قدوة، بل يكون غير الصالح من رجال الإسلام سببا يدفع الناس وخاصة الشباب إلى الإلحاد، ولخطورة القدوة كان الاصطفاء للأنبياء كما ذكر القرآن الكريم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1] «وكذا الحب والرضا. وأسمى الصفات والمواهب العقلية والخلقية والعملية، فهم صفوة الخلق، والمثل الكاملة للإنسانية، وهم أقوى البشر وأجدرهم بحمل رسالات الله ودعوة الخلق إليه[2].

٤ ـ قلة الاهتمام بتدريس الدين

لتدريس الدين حصص، وفي آخر العام امتحانات في كثير من البلدان الإسلامية، وكان المؤمل من وراء هذه الجهود أن يكون هناك وعي ديني بالإسلام ماهو؟ ما مزاياه؟ وما هي أهم الشبهات المثارة حوله؟، وأهم المناوئين لحركته المحاولين تعويقها؟ وحتى نخرج الناشئة من إطار التدين التقليدي إلى إطار التدين الحق فيصبح لدى الشباب حصانة قوية ليثبتوا بها أمام الماديات والأهواء والإغراءات، ولكن الواقع مخالف لذلك ومازال نصيب الدين من الحصص قليلا، ولا أدري هل هو نافلة لا يؤبه بها، أو أن آثاره في الحياة غير ملحوظة حتى أننا لا نجود عليه إلا بحصص قليلة يستهين بها المدرس والطالب، وهذه قضية أخرى، فإن الذين ينتخبون لأداء تدريس التربية الدينية ينبغي أن يكون عندهم الاهتمام بتدريسها، وكذلك الوعي والإدراك الكامل لمهمتهم وأثرها في الحياة، كما أنهم هم ينبغي أن يكونوا مؤمنين عاملين بما يعلمونه حتى لا تكون هناك فجوة بين العلم والسلوك، فإن أية مفارقة سلوكية لما يقال تنسف الثقة بالمدرس وما يقوله.

بالإضافة إلى أنه ينبغي أن تكون لدى المدرس القدرة على تبسيط المعلومة

---

(١) سورة آل عمران: ٣٣.

(٢) أبو الحسن الندوي في النبوة والأنبياء ضوء القرآن الكريم ص١٥ ط خامسة دار القلم ١٩٨٠م.

والتشويق إليها والتحبيب فيها حتى لا يسأم التلاميذ أو ينصرفوا عن حصة الدين إلى لعب الكرة أو إلى منازلهم. كذلك فإن حشو الأدمغة بالمعلومات أو تقوية الأجسام بالرياضة والقلوب خواء من معرفة الله، لا شك أنه سيكون له أثر ضار على الناس جميعا، فهذا نوع من الضلال على علم، أو ملء الأجسام بالطاقات دون تحديد هدف لها تتخبط على غير هدى ضارة غيرها ومضرة بنفسها، وينتج عن ذلك التمزق والتشتت والضياع، لأن السائرين يضربون على غير هدى.

وهناك ملاحظة جديرة بالاهتمام وهي: أننا ينبغي في تدريسنا للدين ألا يكون عملنا حشوا للأدمغة بقدر ما يكون إعانة على تصحيح المسيرة، وتعريفا بمغبة الإلحاد والتدين المغشوش، وتركيزا على حكم المشروعية من وراء الأحكام الإسلامية وتعميق الإحساس بالالتجاء إلى الله والفرار إليه، وتحبيب الطاعات وتبغيض المعاصي بذكر أمثلة وتجارب من الحياة والأمم والأفراد في الماضي والحاضر، وكيف تكون الطاعات سببا لرفاهية العيش وهدوء النفس وتماسك المجتمعات؟ وكيف تكون المعاصي مقدمة لكل نقمة من الله عز وجل، وبذلك تمتلىء أنفس الناشئة وقلوبهم بمثل الإسلام العليا وصلاحيته لقيادة الحياة، فتشيع في أعمالهم خشية الله وتقواه ولا يكون منهم عدوان على حد من حدود الله، أو تقصير في فرض من فرائض الله سبحانه وتعالى «والنفس من شأنها أبدا طلب الحظوظ والفراق من الحقوق فهي لا تسعى إلا في ذلك: ولو في عملها في الطاعات فضلا عن المعاصي»[1].

٥ ـ عدم توفر الداعية الكفء في المساجد

من الحقائق الناصعة أن المنابر هي أوسع الصحف انتشارا، فمن يستمعون إلى خطبة الجمعة أكثر ممن يقرأون الجرائد ويسمعون الراديو ويشاهدون التلفزيون فسماع الخطبة يشترك فيه العالم والجاهل والصغير والكبير بل والرجل والمرأة.

---

(١) حكم بن عطاء السكندري جـ٢ ص١١ تحقيق د. عبدالحليم محمود، د. محمود بن الشريف ط أولى ١٩٧٠ دار الكتب الحديثة بالقاهرة.

وإذا كان خطيب المسجد وإمامه ذا اقتدار على الإقناع، وتملك لناصية الكلام وصاحب ذهن. متفتح، وعين مفتوحة، وأذن واعية، وملاحظة يقظة، وقبل ذلك وبعده يرجو وجه الله ويخشى عذابه، ويرى أن صناعة الدعوة صناعة الأطهار والأبرار والسائرين على طريق الأنبياء طريق النور والخلاص والرجاء ـ أقول إذا كان كذلك اجتذب الناس إليه وتعلقت القلوب والأنظار به، وأحاطه الناس بالتجلة والاحترام، فانصاغت قلوبهم لأمره، وهفت نفوسهم لنصيحته. فعلا قدره وأصبح مفسرهم ومحدثهم وحلال مشاكلهم.

وآيات القرآن وأحاديث الرسول تحذران من التظاهر القولي دون العمل، فالله يقول: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[2] وحديث رسول الله ﷺ **(يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار، برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون أي فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه)**[3].

ولو أننا استطعنا اختيار عناصر جيدة في الدعوة، وأضفنا إلى ذلك محاولة تجويد من لا يجيدون بالتدريب والإمداد بالكتب والاستماع إلى كبار الدعاة لحسنا مستوى أداء الدعاة في المساجد، بالإضافة إلى مكتبة المسجد وناديه، ولو أمكن إلحاق النادي به وحلقات الدروس ودروس التقوية، ونشاط المستشفى الملحق به، وترتيب تزاورات بين الصالحين من رواد المسجد بعضهم وبعض، وبينهم وبين غيرهم.كل ذلك مما يجعل الفرصة للتفلت من الدين أقل، وحين يمتلىء وقت الشاب

---

(١) البقرة: ٤٤

(٢) الصف آية ٢

(٣) مسلم باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر ويفعله، والبخارى كتاب بدء الخلق ـ باب صفة النار.

بالدراسة أو بالعبادة أو بالرياضة أو بالعمل الاجتماعي تقل لديه فرصة الفراغ، وهو كما قيل: إن الشباب والفراغ والحيرة مفسدة للمرء أي مفسدة.

حسب المسجد قوة أنه دار العلم والعمل والعلاج والتريض وتتويج القادة، وهو مرآة نظافة المجتمع قلوبا وأثوابا ووحدته جماعات وأفرادا. ولا يحيكن بصدر داعية أنه أقل خطرا أو شأنا من غيره، فإن من ينطق بخير الكلم ويجيش صدره بأحلى ما نطق به بشر لا يضيره أن يتجهم جهول أو حاقد أو حاسد أو مستعمر له، وحسبه أن له من الثواب مثل عمل من يدعوهم، وأنه على بصيرة كما نطق القرآن، وأن طريقه طريقة خير الطرق فهو كما نقرأ ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾

وفي أغلب الأحيان يترك عدم وجود الداعية الكفء فراغا في الحي الذي لا يوجد فيه الداعية الكفء، إذ يحس الناس بانخفاض صوت الدين فيه أو بانعدامه وهي حال تعطي الفرصة لكل ناعق أن يدعو بما يريده.

٦ ـ قلة البرامج الدينية في وسائل الإعلام

للبرامج الدينية وجود غير منكور على خرائط وسائل الإعلام المختلفة، فهناك مثلا قصة آية، وحديث، وأحاديث الشيخ الشعراوي، ودروس حول التفسير، ونور الإسلام... إلخ وهناك الصفحة الدينية الأسبوعية في الصحافة اليومية، إلا أن هناك بعض الملاحظات حول تلك البرامج ومنها:

قلتها بالنسبة لغيرها، فلو أحصينا الوقت الذي تشغله لوجدنا ٥٪ مثلا أو أكثر، أو أقل قليلا، ومن المعلوم أن النفس البشرية تنسى ولابد لها من دوام التذكير في زحمة الحياة اليومية، وهذا يتطلب توزيع البرامج الدينية وسط البرامج بحيث تغطى أوائلها وأواسطها وأواخرها، فللغناء بريقه، وللمسلسلات استهواؤها، وحتى برامج الرسوم المتحركة لها محبوها... إلخ وكما قلت: التذكير يحتاج إلى المداومة.

ومن الملاحظات: أن البرامج الدينية تأتي جافة حتى الاستديوهات التي تصور فيها يلاحظ عليها عدم العناية، كما أن إخراجها لا يحوي شيئا مما يجذب انتباه السامع أو

الرأي، وبالتالي فهي مفتقرة إلى عصر التشويق والجذب، وهو عنصر مهم في الاستيلاء على انتباه الناس وحسن توجيههم.

كما يلاحظ الافتقار إلى الإعداد الجيد، فبعض الموضوعات تأتي غير مدروسة بما فيه الكفاية، والعناصر التي اختيرت ليست على مستوى جيد يضمن لها الإقناع والإحاطة بجوانب الموضوع المطروح، وبعض تلك العناصر فيما يبدو أتت من باب المجاملة أو المحاباة، ومما يجذب الانتباه أن بعض الموضوعات مما لايشغل بال الرأي العام ولا هو قضية من القضايا الملحة، قد يقال: إن لتلك الأجهزة حساسيات وأقول نعم. ولكن حتى يكون التوجيه نافعا ولا يضيع وقتنا وجهدنا ووقت الناس وجهدهم يجب علينا أن نختار مواضيع نافعة ومتحدثين نافعين، وإلا فإننا نحرث البحر ونطحن الهواء، وللمسلسلات الدينية في الإذاعة أو التلفزيون أهمية كان الواجب أن تجند لها أقلام ومخرجون ومهندسو ديكور حتى تحظى بما يحظى به غيرها، وقد يكون بعضها حظي بذلك الاهتمام ولكن معظمها لم يحظ به، وما لم يجد الناس فيها ما يجذب اهتمامهم ويستهويهم فإنهم سوف يديرون زر الجهاز على قناة أخرى أو يغلقونه، أو يشغلون شريطا للڤيديو بدلا منه، وحسب ترتيب الأولويات فإن مختلف ألوان التوجيه الديني يجب أن نهتم بها اهتماما شديدا من دروس في التفسير أو الحديث أو إجابات على أسئلة أو قصص ممثلة أو روايات أو مسلسلات، فقد أصبح لزاما علينا أن نستعين بتلك الفنون في التوجيه الإسلامي مادام الدين هو المحرك الأول لضمائر الناس وسلوكهم، وهو صانع المواطن الصالح الحر المخلص. والناس فيهم ميل فطري للتدين حتى وإن تقنعوا بأقنعة يبدو فيها في الظاهر عدم الميل إلى تصديق الغيبيات. وهناك من الحوادث الكثير مما يؤيد ذلك من انقلاب من شقاء إلى هداية ومن فسق إلى نسك، والعكس صحيح.

٧ ـ الافتقار إلى جماعات دينية فاهمة وجادة

ما لا ينمو في العلن ينمو في السر، وما ينمو في السر دائما يختلط فيه الصحيح بالخاطىء، والإخلاص بالرياء، والحق بالباطل، والنافع بالضار، تماما كما يزرع

رجل في حقله أو بيته نباتا محرما فإنه يحاول جهده إخفاءه، كذلك الأفكار عندما تنمو في الظلام يكون الموحون بها حصرماً لم يستو بعد، أو ممررون حاقدون، فتأتي نصائحهم وتوجيهاتهم فيها من الحق ومن الجهل، ومن التآمر والظلم ما فيها. ولذلك تتعدد بالمئات، ويجهل ويكفر كل منها الآخر.

أما عندما يوجد إطار متمثل في جماعة تعمل في النور، لها قياداتها الواعية العاقلة التي تعمل جهارا نهارا وعلى الملأ، فإن هذه الجماعة سوف تستقطب الكثيرين من أبنائنا، وهم إذا تعلموا الدين تعلموه علنا ومن مصادره، وإذا مارسوا الرياضة مارسوها علنا وعلى مرأى ومسمع من الناس جميعا، ويصبح لها نظامها وفروعها ومدارسها وأنشطتها.

ويكون لها برنامج تربوي عقدي وخلقي ورياضي، لبناء الروح فيه نصيبه، ولبناء العقل فيه نصيبه، ولبناء الجسم كذلك نصيبه، وهذا البرنامج برنامج يضع في اعتباره التربية وكفى، دون الميل إلى التهاتر أو الاستعراض أو التعرض لما يؤدى إلى إجهاض الجماعة، ومع اتساع النشاط يتعرف الناس عليها أكثر، وقد أصبح لها مجلة أو صحيفة أو إذاعة، والمهم أن تتجنب ما يؤدى إلى إجهاضها، قد يوجد في المدارس جماعة الخطابة أو جماعة الشعر أو المسرح. . . الخ وليس هذا كافيا في تنشيط الحياة من الناحية الدينية، إنما تنشط بالاهتمام بالقرآن حفظا وتلاوة، وتفسيرا وأسلوبا للحياة، وقل مثل ذلك في السنة المطهرة، ومثله في الحفاظ على الأخلاق ومثله في عون الشباب على أعباء هذه الحياة وأثقالها وانتشالهم من بين براثن شياطين الإنس والجن، وما لم يجد الناس جماعة تجمعهم على الخير، فإنهم سوف يجدون جماعات تجمعهم على الشر.

إن المسلم في المجتمع الإسلامي الآن يحس بانقطاع الأواصر بينه وبين غيره، فأين التزاور؟ وأين حل مشاكل الناس بعضهم مع بعض؟ وأحس بأن هناك سببين: أولهما: أن الناس يأتون وكل منهم منشغل بنفسه ينوء بأحمال ثقال تجعله لا يفكر في غيره، ربما لاتساع مساحة مطالب الحياة، وربما لغيبة الوازع الديني الذي يوقظ في

المسلم انتماءه وأخيه إلى عقيدة واحدة، وأمة واحدة، تجعل من الضروري أن يسأل عنه.

وثانيهما: أن بعض الأنظمة يهمها أن تبقى الأواصر مقطعة، فتجمع الناس قد يشكل خطرا، ولذلك تحظر الزيارات ولو إيماء وتمنع ويحس الناس أن أعين الرقباء تلاحقهم ولسان الحال: فرق تسد.

وعموما فإن الإسلام والمسلمين في حاجة إلى جماعة لها نشاطها وفكرها، قد تبدأ إقليمية ثم تزداد اتساعا حتى تصل إلى مرحلة العالمية مع التشديد على ألا تستغلها دولة بعينها لأهدافها السياسية لقاء ما تعطيه لها من معونة. بل تعتمد على اشتراكات الأفراد، أو على مساهمات جميع الدول فيها فتصبح عالمية شعبية تخدم الإسلام والمسلمين جميعا على مستوى الدولة الواحدة والعالم الإسلامي أجمع، ومن الطبيعي أن يكون لها إذاعة وجريدة ومطبعة وجهاز علمي ومالي... الخ.

«وعلينا ان نفتش عن الصيغ التنظيمية التي تحقق ذلك، وعن الأشخاص الذي يحققون ذلك، وعن الموانع التي تحول دون ذلك فنزيلها»[1].

وانتقاء الأشخاص الصالحين مهمة صعبة دونها تخليص الذهب الخام من التراب، ولسوف نرى مخلصين متلونين ونفعيين، وعلينا الصبر «والبحث في المدن والقرى عن الصالحين من شتى الطوائف، وجمعهم على صعيد واحد، وشغلهم بالسعي المنظم للإصلاح والبناء طبقا لبرنامج حكيم وضعه حكماء المسلمون لهذا الغرض لا يغفل التربية الفكرية والخلقية والجوانب الاقتصادية من صناعة وزراعة وتجارة»[2].

---

(١) سعيد حوى دروس في العمل الإسلامي ص٢٤ دار الوثائق ط أولى ١٩٨١

(٢) أبو الأعلى المودودي تذكرة دعاة الإسلام ط ١٩٨٥ دار العدالة للطباعة القاهرة.

نتائج الفراغ الديني

كان لابد لنتائج رئيسية أن تنتج عما سبق ذكره من أسباب أدت إلى الفراغ الديني، وقد ظلت تلك الأسباب تعمل عملها مع الزمن خفية وجهرة حتى أفرخت وأينعت أشياء رهيبة نعاني منها الآن أشد المعاناة، وكان أخطرها ما يلي:-

الانصراف عن الدين

من تجمع الأسباب السابقة أو وجود بعضها أو معظمها، وبالإضافة إلى أسباب مستوردة من خارج المنطقة الإسلامية تولد تيار رهيب يلهي الناس بشتى الملهيات ويشغلهم وفق شواغل مدروسة عن دينهم وعن النافع الجاد من الأعمال الحياتية النافعة، وأصبح من أبرق الشبهات لدى المشتبه عليهم إلصاق تخلفنا بديننا، وأنه دين التخلف والمتخلفين، وبتنا صورة مشوهة تستغل حجابا لصرف الناس عن التفكير في الإسلام، وتجرأ الصائحون من هنا وهناك: انظروا ماذا فعلت أوروبا عندما انصرفت عن الدين؟ لقد تقدمت ونسوا أن أوروبا إذا كانت قد نبذت إلهها القديم فقد آمنت بإله جديد أكثر تقلبا كما يقولون: «إن أوروبا قد نبذت اليوم إلهها وآمنت بإله جديد هو العلم، ولكن العلم كائن متقلب، فهو يثبت اليوم مانفاه بالأمس، وهو ينفي غدا ما يثبته اليوم، لذلك تجد عباده في قلق دائم لا يستقرون، فالإنسان في حاجة إلى قيم ثابتة لا تتغير وهذه القيم لا توجد إلا في الإسلام.

أما عندما عملت الأسباب السابقة عملها، فقد وجدت اتجاهات نحو الشيوعية والوجودية وغيرهما، وتناسى بعض الناس أن الدين هو البوصلة التي ترشد إلى الاتجاه الصحيح، وهو النواة التي تتجمع حولها قوى الكائن الحي كلها، وبدونها تتبدد قوى الإنسان كلها من: فكرية، وجسمية، وثرواته الاقتصادية، وعلاقاته الاجتماعية، ويصبح الأمر كما يقول القرآن: ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾[1] ويعجب

---

(١) النحل: ٧٦

الناس بأعمالهم، كقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾[1] وقوله ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾[2].

وقد يكون من ألوان الانصراف التنكر جملة وتفصيلا، وقد يكون التنكر الفعلي مع التشبث بالانتساب بالقول والإتيان بكل عجيبة تحت ستار الإسلام، وهذا اللون من المسلمين محبب لدى المستعمرين والمستغربين، إذ أنه يعمل بوجهين وجه مع الإسلام ووجه ضده، وصدق الرسول الكريم (**وتجدون شر الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه**)[3].

وكما قال ﷺ (**من كان له وجهان في الدنيا كان له يوم القيامة لسانان من نار**)[4]. وفي المجتمع الإسلامي يوجد ألوان شتى من الانصراف عن الدين في بعضها جرأة على الاستعلان، وفي بعضها جبن عنه، ولكنهم على أي حال نتاج سوء التربية وانعدام القدوة وأسن المنبع... الخ وهذه الألوان قد تنبأ لها أعداء الإسلام وأحاطوها بالعناية والرعاية، وسلطوها على الهدم والتجريح، وكان شعارهم أن يحاربونا ببنى جلدتنا، وفساق حالهم: «دعوا أحد أفرع الشجرة يقطعها» فوجدت دول وزعامات، ولاؤها: للشرق، وللغرب.

٢ ـ الاستخفاف بالوطن

إذا بردت حمية الدين في القلوب بردت عواطفهم تجاه أشياء، كالعرض والوطن والأهل والولد، وهددت أرض الإسلام ودور اللهو ملآى، وديست كرامة أقطاره، ولم تهتز من معظم أبناء الإسلام شعرة، وذلك وليد موت العزة في النفوس،

---

(١) فاطر: ٨

(٢) الكهف: ١٠٣، ١٠٤

(٣) متفق عليه رواه البخاري في كتاب المناقب

(٤) أبو داود وابن حيان في صحيحه نقلا عن الترغيب جـ٣ ص٤٣١ طبعة الأوقاف بمصر.

وفقدان التناصر حتى يسفح الدم المسلم ظلما وتمزق بعض الأقطار المسلمة شر ممزق، ولكن أنى للحالمين أن يفيقوا وللاهين أن يجدوا. وبات مستويا لدى كثيرين أن نعيش أحراراً أو مستعمرين ما دام البطن ممتلئا والجيب منتفخا و. و. .

وأصبحنا نجد الجادين من أبنائنا كالطير الهائم لا يجد منزلا ولا مستقرا، لقد لقوا الهوان من بنى جنسهم ودينهم، وحق عليهم قوله تعالى ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾[1]. وكما قيل:

وإذا لـم تكـرم بـأرضـك فارتحـل فـلا خيـر فـي دار يهـان كـريمهـا

وقد ساعد على ذلك تبدل المثل الأعلى، وتوجيه الاحترام إلى من لا يستحقونه فحلوا من الناس القلوب، ومن المجتمعات القدوة، زيهم مقلد ومشيتهم مقصد وحديثهم متأسىً به، وتعظيم امرأة تحسن تلوية جسدها، أو تمجيد رجل لإحسانه الكلام صدقا وكذبا، ووضع لاعب كرة في وضع النجومية أي الأجرام الدائرة في السماء، فيشار إليه بالبنان كما يشار إليها، وغير ذلك أمور تصيب الجادين النافعين بالدوار والإحباط، وتجعلهم يشعرون بالغبن رغم سهر الليالي وإزهاق أنوار العيون في تحصيل ما من شأنه إعلاء أمتهم، وأوطان هذا شأنها يموت فيها العلماء فاقة وتنتفخ خزائن الفارغين هى أوطان إن صبر فيها البعض احتسابا فلن يصبر البعض الآخر، وقد يهمل رجل لغيرة امرأة من امرأته، أو لأن أمرأة لا تستلطفه وتكون النتيجة هجرة يتلقاه بعدها أعداء الإسلام بالبشر والترحاب، وكأنهم يقولون لأبنائنا النابغين انظروا وقارنوا الفرق بيننا وبين ذويكم في المعاملة، وتصبح الخسارة لا تقدر ببلايين ولا بثروة الدنيا كلها، وهل يقدر العلم بمال، وهل ينبغ في كل يوم نابغة. وهل يعلو شأن الأمة إلا بعقول العلماء.

إننا نرى العلماء في كل الدنيا لهم احتراهم حتى أن بعض البلاد لا تسمح

---

(١) النساء: ١٠٠

بهجرتهم ولو أدى الأمر إلى إيداعهم السجون، وبلاد أخرى تضعهم في مكان التجلة والاحترام، فهناك نجوم هوليود نعم ولكن أين هم من نجوم العلم والمعامل؟ تلك نجومية الهزل وهذه نجومية الجد، والأمم تبنى بالجد لا بالهزل، وبالعمل لا بالغناء.

وهل يذود عن الأوطان منحل أو شيوعي أو منعدم الولاء؟ أو من تتغبش لديه قيمة الأرض التي نشأ عليها؟ وقد نسب القرآن أرض الإسلام إلى المسلمين فقال ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ [1] ورسول الله ﷺ دعا ربه: **(اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة أو أشد)**[2]، **فهل إذا فرغ القلب من العقيدة يبقى فيه مكان للوطن يرجو الاستشهاد من أجله (ومن قتل دون ماله فهد شهيد).**

٣ ـ الرود أمام المنكرات

هناك ما يمكن أن نطلق عليه: سلطة الرأي العام، أو سطوته، أو الشخصية الخلقية، وهي توجد عندما يكون هناك معالم خلقية واضحة وإذا عملت أساليب التنسية والإلهاء عملها أصبح الناس جميعا كالشخصية الشعبية «جحا» شعارهم «وأنا مالي وهو شعار إن أعفى من المسئولية أمام الناس فلن يعفي من المسئولية أمام الله والضمير، والمسلمون أمة شعارها التناصح، ودينهم النصيحة، وبيعتهم على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم، وهم أمة سبب خيريتها أمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر.

ومما لا شك فيه أن الجو الذي نعيش فيه قد عمل عمله في تبليدنا تجاه المنكرات، فسلسلة الإجراءات في الشرطة والقوانين الوضعية بما تستند إليه من سلطان يهدر الأخلاق كغاية من: غاياته، كل هذا تسبب في رؤية المناكر ثم الإعراض أو الإغضاء عنها، وإذا انعزل الدين عن القيادة ومجدت البعيدات والبعيدون عن الإسلام فسوف يشتد البرود أكثر وأكثر في نفوس الناس، فإذا جاء الطوفان فلن يترك صالحا ولا طالحا.

---

(١) الحج: ٤٠

(٢) البخاري كتاب الدعوات ومسلم باب الترغيب في سكنى المدينة.

والقرآن يذكر من أسباب لعنة الله لبنى إسرائيل عدم أمرهم بالمعروف وعدم تناهيهم عن المنكر يقول تعالى ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾[1]. كما أن الناهي عن السوء تكتب له النجاة ويؤخذ الظالمون بفسقهم، يقول تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴾[2] وعن عقوبة الساكتين على المنكر يقول الرسول ﷺ **(مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا في سفينة، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا) رواه البخاري والترمذي**[3]

وقد روى الترمذي بسنده قال رسول الله ﷺ **(لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا، فجالسوهم في مجالسهم وواكلوهم وشاربوهم فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم بلسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون فجلس رسول الله ﷺ وكان متكئا فقال: لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطرا)**[4].

ولا بد للمسليمن أن يؤازر بعضهم بعضا في مواجهة المناكر حتى لا تمتد عدواها من المريض إلى الصحيح، لأن البرود أمام المناكر يجعل عودها يشتد وجمعها يزداد وعدواها تزداد انتشارا، ولحظتها يصعب مواجهتها وتنهد الأمة من الداخل،

---

(١) المائدة: ١٧٨، ٢٠٧

(٢) الأعراف: ١٦٥

(٣) الترغيب جـ٣ص١٨٧ط الأوقاف

(٤) رواه أبو داود والترمذي واللفظ له.

فإن الشهوات أغلظ على الأمة من جيش يحيط بها، ولا يجب أن تنسى كيف لم تقاوم فرنسا في الحرب العالمية الثانية أمام المانيا ست ساعات ورفعت الرايات البيض خوفا على بيوت الفساد وعدم القدرة على المواجهة.

٤ ـ سيادة الروح الأنانية

مما لا شك فيه أن في داخل كل منا أنا خاصة به، وهذه الأنا لها طموحها وشهواتها وأهدافها، فلو كانت أوفر عقلا أو أقوى ذراعا أو أكثر نفرا أو أكبر منصبا ولم يكن لها كابح يكبحها ترى هل لأنانيتها حدود؟ إن النصر يغري بالنصر والمال يغرى بالمال وسعار الشهوات لا يوقفه إلا العجز أو الموت، والمتربون على موائد المذاهب الاقتصادية أو بعض الفلسفات كالمنفعة لا يعرفون إلا من خلال: انفعني وأنفعك، أما المنفعة من جانب واحد فمرفوضة، وعلى هذا يجرى تبادل المنافع حتى أصبح الوالد هناك لا يأبه لأولاده عند سن معينة ولو كن إناثا، والولد لا يأبه لأبيه وأمه ولو كانا عاجزين، وهناك بوادر بدرت في البلاد الإسلامية نحو تقليد هؤلاء، ومنها ما سمي بيوت المسنين، إذ أصبحنا نشاهد أو نقرأ عن إيداع بعض الآباء والأمهات هذه البيوت وأقرب الأمثلة ما قرأناه عن امرأة كانت يوما شيئا ثم أودعت تلك البيوت وتركت مذكراتها لدى صديقتها صاحبة الدار. وفيها أنين مكتوم من عقوق الأهل والأبناء.

إن ربط الإنسان بالإنسان لا يكون إلا عبر رباط قوى يشعر الناس بالأخوة في الإنسانية، فإذا قربنا خطوة وأصبح الأخوان مسلمين، فإن الأنانية ينبغي أن تهذب ولا أقول تمحى فالله ورسوله فقط هما فوق النفس والمال والولد والوالد، أما ما عدا ذلك فكما يقال: أحبك نعم ولكن ليس أكثر من نفسي، وهكذا فإننا لا نمنع الأنا ولكننا نهذبها فلا يصبح الشعار أنا أو الطوفان، أو إن جاءك الطوفان حط ولدك تحت قدميك، وإنما عش ودع غيرك يعيش، تكسب ودع غيرك يصنع مثلك، لا تقتل الناس بإطعامهم دجاجا فاسدا أو لحما فاسدا، أو بيضا فاسدا أو لا تبن عمارة تسقط على رؤوس الناس ليكبر رصيدك في البنوك ويموت غيرك، فالإسلام يعظم حرمات

المسلمين قال تعالى ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾[1] ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾[2].

وقد قال رسول الله ﷺ : **(المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وشبك بين أصابعه)**[3] ـ **وقوله عليه الصلاة والسلام: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)**[4]وغير ذلك من الأحاديث الكثيرة.

وشيوع روح التعاطف معناه أن الإسلام مازال متينا وقويا بين صفوفنا، أما الأنانية فمعناها تقطع الروابط وتمزق العواطف، فيموت الرجل قهرا أو جوعا أو عريا وأية أمة كذلك تبرأ منها ذمة الله ورسوله وتحل اللعنة عليها جميعا، وإلا فأين سيل الآيات والأحاديث الآمرة ببر اليتيم وضمان حقوق الأخوة وحسن الجوار وصلة الأرحام؟

٥ ـ فشو التقليد

الأصل في المسلم هو الاعتصام بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فهو لا يرى سبيلا أشرف منهما، ولا أولى بالانقياد له منهما، والاحتكام إليهما علامة على قوة اليقين وثبات الدين لقوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾[5] ويقول: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[6]

---

(١) الحج: ٣٠
(٢) المائدة: ٣٢
(٣) متفق عليه
(٤) متفق عليه
(٥) النساء: ٦٥
(٦) النور: ٥١

وقد أمرنا ربنا بالائتمار لأمر رسوله والانتهاء عن نهيه فقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[1]... ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[2].

ومن السنة قوله ﷺ: (أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشي، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة)[3] وغير ذلك كثير في السنة النبوية.

وقد كان المسلمون الأوائل أشد الناس انصياعا لأمر الله ونهيه، وأكثرهم تلهفا على تنفيذ ما يأتي من شرع الله، ثم لما انهزمت الأمة الإسلامية نبتت فيها نابتة التقليد كما ورد في الحديث الشريف: (همج رعاع أتباع كل ناعق). لقد انتشر فينا رجالا ونساء التقليد للحياة الغربية في طريقة طعامنا ولباسنا وحياتنا ومجاملاتنا، ونظرة إلى حرم جامعة من الجامعات، أو وقفة على باب وزارة من الوزارات، ترينا إلى أي حد نحن نقلد وإلى أي مدى فسدت أذواقنا، فنحن نأخذ بغير وعي ما يقبل وما لا يقبل.

ففي الزي هناك ذوق عام، فما يصلح للبدينة لا يصلح للنحيلة.. الخ وهناك زي الصباح وزي العصر وزي المغرب وزي العشاء... الخ وفي تسريحات الشعر نجد نماذج وأنماطا شتى... وهذا كله دليل ضياع الشخصية والهزيمة النفسية والتبعية حتى وإن استقلت بلادنا.

كنت في إحدى ساحات الدرس فإذا بي أرى طالبا يلبس سوارا من البلاستيك ونصحت الطالب ثم أخذتها من يده وأفهمته أن الإسلام ينهى عن ذلك لأنه تقليد لأهل الكتاب فانتصح، وانصاع ونفس الحادث مع آخر لم ينصع، وأشار إلى أنها حظاظة تجلب له الحظ، وطالب آخر توقح فقال:ـ وأنت لماذا غاضب منها، وخذ

---

(١) الحشر: ٧

(٢) آل عمران: ٣١

(٣) أبو داود وابن ماجة وابن حبان والترمذي

ضيق الملابس حتى في أشد البلاد حرا، ثم ما يسمونه: الكاوبوي... الخ. أين شخصيتنا الإسلامية، أين تقاليدنا؟ لقد اغتاظ صحفي غير فرنسي في فرنسا لأن موظف البنك رفض التحادث معه بغير الفرنسية، وقل مثل هذا في ألمانيا. فبماذا نفسر ذلك؟ لا شك أنها الشخصية القومية، وكيف يحافظ أصحابها عليها؟ فهل من مزدجر أو معتبر؟ ألا يجب علينا ـ لو كنا مسلمين حقا ـ أن يقلدنا الناس بدلا من أن نقلدهم؟ ويكفي قول رسول الله ﷺ **(من تشبه بقوم فهو منهم)**[1].

يقول الشيخ نديم الجسر في بحث له ألقاه أمام مجمع البحوث الإسلامية عن الفراغ والتقليد:

«إنه قد نشأ عن جهل بالإسلام الصحيح، وانهزام عقلي للأمة الإسلامية، بعد انهزام عسكري، وعن سوء التربية في الأسرة والمدرسة، وعدم بسط تعاليم الإسلام كما ينبغي، وقد نشأ عن الفراغ والتقليد فناء وشخصيتنا في شخصية المستعمرين ـ وإن رحلوا ـ وهو ما يحدث دائما، وأصبح الشباب المسلم «إذا استثنينا الصحوة الإسلامية» في تخاذل واستكانة وصلت إلى درجة شل بعض قوى الشباب العقلية ومنعها من الانطلاق...

ومن العيوب البارزة فينا عيبان:

أولهما: الإعجاب بالغرب بحيث ننسى أنفسنا ونستسلم له

وثانيهما: الإعجاب بماضينا والفخر به بحيث نظل مشدودين إلى الوراء، ثم تمثل بأبيات من شعر معروف الرصافي يندد فيها بهذا الوضع فيقول:

أرى مستقبل الأيام أولى ... بمطمح من يحاول أن يسودا
فما بلغ المقاصد غير ساع ... يردد في غد نظرا سديدا
فوجه وجه عزمك نحو آت ... ولا تلفت إلى الماضين جيدا
وهل إن كان حاضرنا شقيا ... نسود بكون ماضينا سعيدا[2]

(١) رواه أحمد وأبو داود والطبراني في الكبير عن ابن عمر مرفوعا وسنده ضعيف وقد صححه ابن حبان من تمييز الطيب عن الخبيث ص١٦٠ ط صبيح ١٩٦٣

(٢) المؤتمر الثاني لمجمع البحوث الإسلامية.

وطبعا نحن لا نوافق الرصافي في نهيه عن التلفت إلى الماضيين، ولكنه ينبغي أن يكون تلفت المستفيد المعتبر المشيد للحاضر الباني للمستقبل.

٦ - رواج المبادىء الهدامة

في غياب التوجه الصحيح والمناخ السليم المستقى من مصادر موثقة وواضحة اشتد عود المبادىء الهدامة وارتفعت راياتها ونشطت سوقها، وظهرت أشياء مشكوك في هويتها رغم أن القائمين عليها منا، فهناك الروتاري والليونز وغيرهما مما يعمل في خفاء وهي امتداد لدعوات ماتت كالوجودية وأشياء في الغناء والموسيقى مضحكة ومبكية وجلها جنون في جنون، وقمصان تحمل أسماء مجانينها وتعمل على ترويجها تراها على أجساد الشباب المسلم.

وهناك غياب ملاحظ للرقابة على هذه الأشياء، وغياب آخر ملاحظ لما يسمى ببوليس الآداب، كما أن هناك ندرة في التقاء المسلمين الواعين الراصدين للحركة الفنية والأدبية.

بل إنه في المجالات الدينية البحتة نبتت نبتات لا يبدو فيها تمحيص العلم ولا خلو البحث من الفرض، فوجدنا أحد الكتاب يذهب إلى تفسير القرآن بطريقة ترضي أعداء الإسلام، وتلغي حكم القرآن على أصحاب الأديان الأخرى، وقد طلع علينا بمقال طويل يفسر فيه قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[1] بأن أصحاب الأديان الواردة في الآية جميعا ناجون من عذاب الله ويدعى بعدها إلى أمريكا ليلقي محاضرات عن الإسلام، ويمنح جوائز عربية وغربية، مع أنه من الميقن أن طوائف منهم لا تؤمن بالله واليوم الآخر، وأنه لابد لنجاتهم من الإيمان بالله إيمانا صحيحا وكذا اليوم الآخر ثم نبوة محمد ﷺ.

---

(١) البقرة: ٦٢

والآن وبعد تلك الجولة

كيف السبيل؟ وأين العلاج؟

العلاج موجود والتجربة أمامنا ماثلة، وقد ذكرت أن من أسباب الفراغ الديني: عزلة الإسلام عن القيادة الجادة ـ قلة الدراسات المخلصة البناءة ـ فقدان القدوة ـ قلة الاهتمام بتدريس الدين ـ عدم توفر الداعية الكفء ـ قلة البرامج الدينية في وسائل الإعلام ـ الافتقار إلى جماعات دينية قوية تغطي الجانب الاجتماعي . . . وكانت النتائج:

الانصراف عن التدين الجاد ـ الاستخفاف بالوطن ـ البرود أمام المنكرات، سيادة الأنانية ـ فشو التقليد ـ رواج المبادىءالهدامة.

هذه الأسباب التي أدت إلى الأمراض التي ذكرت، نقيضها هو العلاج. وهذه النتائج نقيضها هو نتيجة العلاج وكيف؟

إذا صح العزم على سيادة الإسلام، ووجد من يقدر على ذلك، فالأمر يتطلب العودة المتدرجة إلى حكمه وإلى روحه وإلى أخلاقه، فتبدأ قوانينه تحل محل القوانين الوضعية، في شتى المجالات لا فرق في الاحتكام إليها بين الحاكم والمحكوم. . . ثم توجه أجهزة الإعلام نحو تكثيف الجهود من أجل الإسلام في سلوك العاملين، وفي المسلسلات، وفي البرامج، وفي الصحف، والمجلات، والأمر أولا وأخرا لا خيار لنا فيه فإما أن نكون أو لا نكون، وعدم الجد في النهوض على أساس إسلامي هو خيانة كبرى لله ولرسوله وللمسلمين.

كما أنه ينبغي البحث عن الدراسات الجادة، وتوسيع نطاق نشرها، وتقديم ملخصات للتعريف بها، وتقريرها على الطلبة كل حسب مستواه في مراحل التعليم المختلفة، ونبذ الدراسات السطحية والتحذير منها، وعمل مسابقات للقراءة الحرة وكتابة الابحاث في شتى المجالات، وبذل المكافآت السخية التي تصل لدرجة طباعة الأبحاث على نفقة الدولة، وتحويل ما يصلح للتصنيع إلى المصانع.

فأما فيما يتعلق بتحسين أحوال من يقتدى بهم فيجب أن نضع في حسابنا:

ألا يتقدم الصفوف إلا كفء في ديانته وإخلاصه وبروزه في عمله، وتسلط الاضواء على سلوكياتهم، ويشجع من الآباء والمدرسين من يلاحظ أنه أحسن تربية أبنائه وتلاميذه، وكان قدوة صالحة لهم، كما يجب أن يسكن غياهب النسيان من لا يصلح للقدوة، ويحذر الناس من عمله حسب قانون رب العزة ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[1].

وفيما يتعلق بتدريس الدين فالأمر محتاج إلى أن نعلم جميعا أنه لولا الإسلام ما كنا.

وأنه ينبغي أن يوضع مدرس الدين في موضعه بين الكوادر المتميزة، ويوضع الكتاب المقرر من حيث انتخاب العناصر التي ستؤلفه، كما توضح حصته في موضعها في أحسن ساعات اليوم نشاطا وإقبالا من الطالب والمدرس، وحذف كل ما يسيء إلى الدين من قريب أو من بعيد من وسائل الإعلام، ومحاسبة من تبدر منه بادرة الاستهانة بالدين قولا أو فعلا أو تأليفا حسابا عسيرا حتى لا يجترىء أحد على المساس به، فإن تحقير الدين في صورة من ينتسبون إليه عمل أعداء الإسلام على مدار التاريخ قديما وحديثا، وأمر آخر هو أن يعرف من يدرس الدين أن أي عيب فيه هو كما يقال: «القشة التي تقصم ظهر البعير»، وكفى به إثما أن يبغض الخالق لعباده، كما كفى به ثوابا أن يربي جيلا يحب الله ورسوله، وأما الداعية الكفء في المساجد فيجب علينا ألا نصب غضبنا على الأئمة أو وزارة الأوقاف، فالأئمة ـ إلا القليل ـ هم نتاج معاهد تعليمية في مجتمع معين مستواه العلمي لا نجهله، ومستوى الوعي فيه لا يبشر بخير. والبشر لهم حاجات إذا توفرت انطلق تفكيرهم إلى ما يكلفون به، فأما حين تكون الحاجات وأعنى بها المطعم والملبس والمسكن والكتاب مما يوفر الراحة النفسية غير متوفرة، أو مناخ التربية غير جيد، أو المعلم غير جيد، فسوف يأتي أمام

---

(٢) الرعد: ١٧

المسجد كغيره والأمر محتاج إلى تربية الكوادر، وكما تفعل بعثات التبشير الصحيحة جسما وعقلا وإدخالها دورات ينتقى للتدريس بها كبار المفكرين والغيورين على الإسلام المتبصرين بحال المسلمين، كما يكون التشجيع على القراءة والأبحاث حافزا على تنشيط الهمم، وتوفير الكتاب بأقساط مريحة أو مجانا، أليست الأوقاف من أجل خدمة الاسلام والمسلمين؟

فأما قلة نصيب الدين في وسائل الإعلام فأمر ظاهر، ولنأخذ عينة عشوائية من الصحف في يوم ونحصى ما بها من الشئون الدينية، ثم نقارن بينها وبين الرياضة أو مسلسلات قصص حياة أهل الفن في الشرق العربي والغرب. ولسوف يتضح لنا فيما عدا يوم الجمعة، أن نصيب الدين نزر قليل، وحتى يوم الجمعة فإنه بالقياس لغيره يكون قليلا، وإذا سألنا أنفسنا حسب ضرورة تقدير الأهمية للأشياء فهل تأتي الكرة وقصص أهل الفن واعلانات المصارعة في الأهمية قبل أهمية الدين، وأراني واصلا إلى استنتاج مهم، وهو أنه إذا كان تقدير الأهميات لدينا هكذا فنحن نستحق ما نحن فيه من تخلف، كما أننا سوف نظل الساحة التي يروج فيها كل النمو بدعوة الفن والتقدم أو الخروج على المألوف.

فإذا وجدنا الساحة مفتوحة أمام كل الحركات من روتاري إلى ليونز إلى اليوجا ودعاة الصفاء فيها إلى هواة صك الأسماع بما يسمى موسيقى غربية ورقصا... بينما كافة المحاذير تحيط بالتجمعات الشبابية الإسلامية، فإننا نوقن بأن النشاط الفائض أو الرياضة أو الثقافة أو الترفيه في حاجة إلى جسور سليمة وعلنية ولا بد من ذلك. لابد من التجمع الواضح فكرا وسلوكا وقانونا حتى لا نترك أبناءنا فريسة للضياع بينما يتجمع أبناء غيرنا، لتكن الشبان المسلمين ـ لتكن تجمع الشباب المسلم، يستحمل أي اسم، المهم أن يكون تجمع بسمع وبصر دعاة ومربين ويومها يفرح المؤمنون بأبنائهم وتسعد بهم أوطانهم.

المبحث الثاني
فراغ الفكر والنفس وضياع العمر

كثير ما تملكه الأمة الإسلامية من طاقات: فكرية، وبدنية، ومادية، ومشاعر نفسية لكن هذه الطاقات مبددة لاتجد من يوظفها توظيفا حقيقيا حسب خطة مدروسة توزع فيها الطاقات كل في موضعه الذي يفيد فيه الفرد ويفيد فيه الأمة، ولو أن معاهد الإحصاء ومراكزه توفرت على دراسة مافي باطن الأرض الإسلامية وما على سطحها من ثروات وأراض وأفكار وجهود ووظفته توظيفا حسنا لتغير الحال، لكننا نسير سبهللا ونمشي خطواتنا جزافا، والنهاية أننا جميعا محاسبون على ما نحن فيه، حيث نتشارك حكاما ومحكومين وعامة ومفكرين فيما نحن عليه، نفاق كثير، ودجل كثير، وباطل كثير، والصراحة والحق والجد يتنفسون من سم الخياط.

وعلى العموم فإن الحق مالم يشغلنا شغلنا الباطل، وإذا لم نملأ عقولنا وأنفسنا بما ينفع امتلأت بما يضر، وإذا لم يكن هناك جهد جسمي في الإنتاج يستغرق العمر والجهد فسوف يخترع الإنسان لنفسه مايهد به جسمه ويضيع فيه عمره وجهده.

ولعل من أنكب الآفات التي أصبنا بها تشتت اتجاهاتنا، فالشباب لم يوجه وجهة فكرية وجسمانية سليمة تستغرق جهده العقلي والجسمي، ولنتساءل كم نسبة القارئين من شبابنا المنفتحين على الثقافة الإسلامية والغربية النافعة على السواء؟

وكم نسبة من يدرسون في معاهد الأبحاث ويتوفرون في البحث النظري والعملي؟ وما مدى الاستفادة من الدراسات النظرية والعملية التي تقوم في الجامعات؟ نحن نعيب على المتسكعين ومن قضوا أعمارهم هباء، ولنسأل أنفسنا بماذا أشغلناهم؟ المدرسة والبيت والمجتمع، إذا خرج الولد إلى الحياة ولم يجد في بيته كتابا أو وجده ولم يجد من يقرأه أو يوجهه لقراءته، بل إننا نوفر الورق لملاحق الصحف ولبعض المطبوعات التي يمكن الاستغناء عنها في الوقت الذي نض فيه على

الفكر الجاد بالطبع، وهذا أدى إلى بقاء العقول خواء حتى جاء الغير من صهيونية وصليبية وشيوعية فحاول مِلْئَها بما يدمرها ويدمر معها مستقبل الأمة الإسلامية.

إن الزمن هو أهون شيء لدينا. كان لنا زملاء وأصدقاء يجلس الواحد منهم على لعب الطاولة الساعات الطوال دون كلل أو ملل، ولا يعطى عبادة ربه ولا مذاكرة دروسه ما يعطيه للطاولة، فلننظر نظرة الإسلام إلى الزمن والجهد.

لا يوجد دين قدس الزمن كما قدسه الإسلام واعتبره المسلمون وعاء للبنيان والتشييد الحضاري، فمامضى منه لايعود، ولذا لم ينشغلوا إلا بالنافع (**لقد مر رسول الله برجل والناس مجتمعون عليه فقال: ماهذا؟ فقالوا: رجل علامة قال: بماذا؟ قالوا بالشعر وأنساب العرب فقال: علم لاينفع وجهل لايضر**)[1] ونهينا عن التقعر: فقال تعالى: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[2] وقال رسول الله ﷺ: (**إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ووأد البنات ومنع وهات، وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال، وإضاعة المال**)[3] ونهاهم عن الخوض في القدر[4] والسؤال عن ذات الله تعالى، ولذلك انشغلوا بالنافع من الفعل والقول.

لقد كان فراغ الأنفس مما يشغلها، والفكر مما يكده، والعمر مما يستغرقه في عصور الخمول، سببا من أسباب الانشغال بسيرة عنترة وأبى زيد وألف ليلة وغيرها، فامتلأت قرانا بقارئيها يتسكعون على المقاهي والمصاطب، ثم وجد التليفزيون والفيديو ومباريات الكرة والمصارعة وطائفة أخرى حول مزارات الأولياء، والموالد في البلاد. تضيع أعمارها متنقلة من بلد لبلد، والحقيقة أن معظم أعمالنا اليوم لا تستغرق أعمارنا، وإنما يوجد دائما فراغ غير مشغول فالزراعة تشغل بعض الوقت وتغطي بعض الجهد والتجارة وبعض الصناعة لا تمنع من دردشة بين الصناع

---

(١) أخرجه ابن عبدالبر من حديث أبى هريرة وضعفه ـ الإحياء ط ص٣٠

(٢) المائدة آية: ١٠١

(٣) البخاري كتاب الاستقراض باب النهي عن إضاعة المال

(٤) رواه الطبراني في بإسناد حسن الإحياء ط١ ص٢٩

وصبيانهم ومن حواليهم حيث نكتة هنا وقفشة هنا، ثم عندما ينتهي العمل تبدأ فترة فراغ مميت. من جوزة وشيشة وتليفزيون وڤيديو، فإذا ما ناقشت واحدا منهم جبهك بأنك حنبلي، وأنك تشدد على الناس، وتضيق مذاهبهم، يقول الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله وهو يبين قيمة الزمن لدى الغربيين ولدينا:

«وهناك عنصر آخر يتمتع بنفس الطابع النفسي (طابع الزهد) . . . ذلك العنصر هو فكرة الزمن التي تعد أساسية جدا في تنظيم العمل في العالم الحديث تبعا لنظرية تايلور حيث سيطرت هذه النظرية على مفاهيم المقدرة الإنتاجية فساعة (الكرونوميتر) التي تستخدم في حساب الثواني تستخدم في نفس الوقت في تسعير الإنتاج وليس قولهم (الوقت عملةَ (Time Is Money) من قبيل اللعب بالكلمات، بل هو تعبير دقيق عن الواقع المادي في نظر الإنجليز، فجميع ألوان النشاط في المجتمع الصناعي الحديث تنمو في حدود الزمن المادي وتتقوم بساعات عمل. أما في البلدان المتخلفة فإنهم لم يجربوا هذه العملة الخاصة، إذ تنمو ألوان النشاط والعمل بصورة تقليدية في حدود الزمن الميتافيزيقي، أي في نطاق الأبدية لأنه لا يهدف إلى تشييد صرح القوة، ولا يطبق مبادئها المتنافية مع الأوضاع النفسية[1]

تلك قيمة الزمن لدى الغربيين، ولذا فهم يقدمون الجديد دائما حتى أن من أغرب ماطالعناه أن مكتب تسجيل براءات الاختراع باليابان وهي الدولة الأسيوية الوحيدة ذات التقدم الهائل قد أغلق أبوابه لأن به نحو من ٦٠٠ر٠٠٠ اختراع مسجلة لم تخرج إلى حيز الوجود.

وعندنا أيضا فراغ في الأهداف التي تشغلنا، فالعظائم كفؤها العظماء، وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم، وقد صنع المسلمون فيما مضى أمجادا أذهلت العلم في شتى المجالات، أما نحن الآن في الغالب فماذا يشغلنا؟ معظم الناس نسي المجد الغابر والتاريخ التليد، والشرف الباذخ، بل نسى أفغانستان، والأقصى، ومن آن

---

(١) المسلم في عالم الاقتصاد ص١٧. ١٩٧٨ دار الشروق.

لآخر يأتيني طالب يستعطف من أجل نجاح أو من أجل بضع درجات وأسأله مالذي يشغلك؟

وتأتي الإجابة مهزلة مضحكة مبكية، والأماني كلها من قبيل الشهوات، لأن النفوس صغيرة، والأماني صغيرة، وكلها من باب الغناء، يذكرني هذا بأمنية أبي أيوب الأنصاري عليه رضوان الله أن يركب البحر ويموت فيه، وتحقيق الله أمنيته فيموت بعيدا، ويدفن تحت أسوار القسطنطينية، وبصحابي قال وهو يدعى لتناول نصيبه من الغنائم: ماعلى هذا اتبعتك ولكن اتبعتك على أن أرمى هاهنا يشير إلى حلقة ـ بسهم فأقتل، ويستشهد كما تمنى بسهم يصيبه في حلقه

ولقد قضى خالد بن الوليد عليه الرضوان عمره يجاهد في سبيل الله، وكان يغبط غيره ممن جالسوا الرسول الكريم وحفظوا عنه، وعندما انحسر الإسلام بفعل أسباب كثيرة وتقوقع المسلمون في بلادهم في ذلة وهوان فرغ الناس إلا قليلا منهم من الأهداف السامية، وصار لسان الحال «أهي عيشة» أيام تقضى وآخرتها الموت.. ومن وراء ذلك انهماك في اللذائذ، وتناحر في سبيل تحصيل المال، وتخمة بشتى ألوان الطعام، وقدرة فائقة على الاستهلاك دون الإنتاج، وأصبحنا نتهم جونا وبلادنا ناسين أن هناك في الولايات المتحدة وفي اليابان أجواء تشبه مناخنا، ومع ذلك فلم يعق ذلك عن التقدم والتحضر، لقد أصبحت أجهزة تغيير الجو في أماكن العمل في الشتاء أو في الصيف متوفرة، ولم يعد يعوق الإنسان عن بذل الجهد عائق لو صحت النية.

وبديهي أننا لكي نحط أرجلنا على طريق التقدم لابد من المعادلة الإلهية المتمثلة في قوله تعالى: ﴿**إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾ إن بدء الحركة النافعة والنهضة الشاملة لايكمن في أكثر الماكينات تقدما، ولا في أكثر المصانع حداثة، ولكنه يكمن في الإنسان، فعن دوره في تحقيق النهضة يعلق المرحوم مالك بن نبي على نجاح ألمانيا في بناء اقتصادها بعد عشر سنوات من الانهيار التام على أساس مشروع شاخت، وكيف أخفق نفس المشروع في اندونيسيا يقول رحمه الله:

«وبذا نفهم من أول وهلة كيف تتبدد الأوهام أثناء محاولة بعض البلدان الإسلامية تحقيق استقلالها الاقتصادي بعد أن حققت استغلالها السياسي، فأخذت تستشير لهذه الغاية بعض الخبراء الاقتصاديين، ولم تلبث التجربة أن برهنت لهم على أن «الحالة» في علم الأمراض الاقتصادية ليست كما يحدث في الطب من اختصاص الدكتور.

ولقد رأينا في الواقع الدكتور «شاخت» وهو يعطي مثل هذه الاستشارات، ولقد كان بكل تأكيد خير من يقوم بهذه المهمة، حيث رشحه نجاحه في «حالة» سابقة وهو نجاحه في تخطيط الاقتصاد الذي تحمل جهدا ضخما لبلد دخل الحرب العالمية الثانية دون أن يكون لديه رصيد كبير من الذهب (وهي ألمانيا).

لقد تمنوا جميعا أن يكرر الدكتور شاخت هذه المعجزة خارج بلاده (في أندونيسيا) ولكنهم رأوا أنه لم يستطيع تكرارها . . . ولو كان هناك درس نستفيده من هذا البحث الرائع فلن يكون سوى أن نقول: «إن مبدأ اقتصاديا لايمكن أن يكون له أثره، ومقدرته التامة على التأثير إلا في الظروف التي يتفق فيها مع تجربة اجتماعية معينة. . . ولكي تعطي النظريات الاقتصادية تأثيرها الاجتماعي فيجب ألا يقتصر في دراستها على منصة الجامعة كعلم وقف على بعض المتخصصين، بل يجب أن يطبق هذا العلم على التجارب الجماعية التي يقف فيها وعي كل فرد، وإدراكه أمام المشاكل المادية مقدما بذلك لعلم المتخصصين ظروف صلاحيته للتأثير.

وعمليا يجب أن تسير النظرية الاقتصادية جنبا إلى جنب مع النظرية السياسية كيما تحيل المبدأ النظري إلى قانون للعمل والنشاط، فتضمه بذلك إلى دوافعه وإلى نسقه وأسلوبه، والطريقة الوحيدة التي يصبح بها المبدأ أو الفكرة جزءا من التاريخ هي أن يتحول إلى عمل، إلى دافع عمل، إلى طاقة عملية إلى إمكانية عمل.[1]

ولفراغنا الفكري والجسمي إلى جانب ماسبق سيئات أخرى لأنه بطالة

---

(١) المسلم في عالم الاقتصاد ١٨ : ٢٠ بتصرف

حقيقية أو مقنعة، وفي أحضان البطالة تولد آلاف الرذائل، وتختمر جراثيم التلاشي والفناء، وإذا كان العمل هو رسالة الأحياء، فإن الفارغين أحرى الناس بأن يحشروا مفلسين لاحصاد لهم إلا البوار والخسران.

وقد نبه النبي ﷺ إلى غفلة الألوف عما وهبوا من نعمة العافية والقوت فقال: **(نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ)** رواه البخاري

أجل فكم من سليم الجسم ممدود الوقت يضطرب في هذه الحياة بلا أمل يحدوه ولا عمل يشغله ولا رسالة يخلص بها، ويكرس عمله لإنجاحها، ألهذا خلق؟ كلا فالله عز وجل يقول: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾[1]

إن الحياة بالحق والكون كذلك، والإنسان في هذا العالم يجب أن يتعرف هذا الحق، ويعيش به. يقول الله عز وجل ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾.[2]

ومن أصدق ماقاله الإمام الشافعي رضي الله عنه في أسس التربية هذه الكلمة «إذا لم تشغل نفسك بالحق شغلتك بالباطل».

وهذا صحيح فإن النفس إذا لم تدر في حركات سريعة من مشروعات الخير والجهاد والإنتاج المنظم، لم تلبث أن تنهبها الأفكار الطائشة وتلفها في دوامة من الترهات والمهازل، وأفضل ما تصون به حياة إنسان أن ترسم له منهجا يستغرق أوقاته، ولا يترك فرصة للشيطان أن يتطرق إليه بوسوسة أو إضلال، وتوزيع التكاليف الشرعية على اليوم الواحد أو على الأيام والشهور منظور فيه إلى هذه الحقيقة، وهي ألا يترك للنفس فراغا تمتلىء فيه بالباطل.

يقول ديل كارينجي في كتابه: «دع القلق وابدأ الحياة»: إننا لا نحس بالقلق

---

(١) سورة المؤمنون ١١٥: ١١٦

(٢) الإسراء: ١٠٦

عندما نعكف على أعمالنا، ولكن ساعات الفراغ التي تلي العمل هي أخطر الساعات طرا، فعندما يتاح لنا وقت للفراغ لا يلبث الشيطان أن يهاجمنا

وهنا نتساءل أترانا نحصل من الحياة على ما نشتهي؟

ذلك أن أذهاننا تشبه أن تكون خاوية عندما نفرغ من العمل. والطلاب يتعلمون في دروس الطبيعة أن الطبيعة تملأ الفراغ، وليس شيء من المخلوقات إلا وهو ملء بشيء، وهو أيضا يملأ من الفراغ حيزا، وإذا فرغت نفسك سارعت الطبيعة إلى ملئها بالقلق والخوف والحقد. الأمر الذي يبدد السلام من نفوسنا والاستقرار من عقولنا، لذا فمن الواجب على المربين إذن أن يحذروا أوقات الفراغ، وأن يحصنوا النفوس من شرورها.

ويستطرد الكاتب في ذكر علاج الفراغ فيقول:

وأمثل الوسائل في هذه الحالات وضع سياسات محكمة للإنشاء الدائم والبناء المستمر، فإن شحن الأوقات بالواجبات والانتقال من عمل إلى آخر، ولو من عمل مرهق إلى عمل مرفه هو وحده الذي يحمينا من علل التبطل ولوثات الفراغ، وأحسب أن المجتمع يستطيع الخلاص من مفاسد كثيرة لو استطاع التحكم في أوقات الفراغ، لا بالافادة منها بعد أن توجد، بل بخلق الجهد الذي يستنفد كل طاقة، ويوجه الناس إلى ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم.

فلا يبقى مجال يشعر فيه امرؤ أنه لا عمل له، ومن قديم عرف المصلحون أن بطالة النفس ذريعة للفسوق فقيل:

إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة

وتضم إلى ذلك أن بطالة الفقراء مضيعة لقوة بشرية هائلة، وبعثرة مخزية لما أودعه الله في العضلات والأعصاب والأفئدة من طاقات لو فجرت لغيرت وجه العالم، وأحق الأنظمة بالقبول والتشجيع ما وعى هذه الحقيقة.

والإسلام يملك على الناس أقطار نفوسهم من هذه الناحية، فإن أغلب شرائعه يدور حول جهاد النفس، وجهاد الناس.

وجهاد النفس فطمها عما تهوى من مناكر، وجهاد الناس منع مظالمهم من إفساد الحياة، وكلا الجهادين يستغرق العمر ولا يبقي فيه فراغا، لقد كان رسول الله ﷺ يقول فيما يرويه أبو داود: **(يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)**[1] وكان يقول فيما يرويه الترمذي: **(اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله)**[2] أما شغل النفس بالجهاد فأمر معروف في سيرته وسيرة أصحابه.

إن الفراغ في الشرق يدمر ألوفا من الكفايات والمواهب ويخفيها وراء ركان هائل من الاستهانة والاستكانة كما يختفي الذهب والحديد في المناجم المجهولة.

ومما يروى عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «إني لأرى الرجل فيعجبني فإذا سألت عن حرفته، فقيل: لا حرفة له سقط من عيني» وفي الحديث: **(وأن الله يحب العبد المحترف)** فلا جرم أن شعوبا بأسرها سقطت من عين الله وتسقط من عين أهل الجد والإنتاج، لأنها لاعمل لها. استهلكها الفراغ وأسلمها للفناء، والعلة الأولى لتخلف المسلمين ماغلب عليهم من قعود واستكانة وتقاعس، ولن تحوز نجاحا إلا بالتخلص من آثام البطالة والفراغ[3].

ومن خلال تجارب التاريخ تبدو لنا حقيقة ناصعة وهي أن المسلمين ما اجتمعوا يوما وكان لهم عز الا حول العقيدة، فلا الدعوات الإقليمية، ولا النزعات العرقية، ولا الدعاوى المذهبية، ولا المستجلب من شرق أو من غرب، يمكنها أن تجمع المسلمين. وقد أكدت التجارب أن تلك الدعوات قد مزقت الوطن الواحد، وأمامنا لبنان، وأفغانستان، واليمن الجنوبي، والبعث هنا وهناك، في غزوة من الغزوات كان الشعار الله أكبر، وفي أخرى كان الشعار يامنصور أمت، وفي أخرى

---

(١) رواه أبو داود

(٢) رواه الترمذي.

(٣) جدد حياتك للشيخ الغزالي ٦٣: ٦٨ باختصار، ط ثانية دار القلم ١٩٨٥ دمشق

كان الشعار والإسلاماه . . الخ وقد أكد ابن خلدون أن العرب لا يتجمعون إلا حول عقيدة دينية، وتلك هي التي تكبر جمعنا وتجمع صفوفنا، وأسباب التشرذم والتفرق والتخلف لامنجاة منها إلا بالعقيدة وتلك شهادة التاريخ، فإن هذا الشرق لايبرأ من النهم المسعور، والانكباب على الجنس إلا في الفترات التي تملكته فيها العقيدة، فاستنفدت طاقته المذخورة في آفاق أعلى من محيط الجسد، وأثمن من دفعة الغريزة، حين تحولت هذه الطاقات إلى فتوحات لا مثيل لها في التاريخ، وحركة علمية وفكرية ومادية وروحية أضاءت النور للإنسانية الحائرة الغارقة في الظلمات. حين ذاك كان كل شيء في موضعه المعقول فلا استبداد ولا كبت ولا إهمال ولا مبالغة ولاسعار.

ونحن اليوم في حاجة إلى العقيدة تنظف النفوس وترفع من أهدافها، وفي حاجة إليها تملأ الفراغ المدمر القاتل، فراغ الزمن، وفراغ الجهد، وفراغ الأهداف. فراغ النفس والروح على السواء، وفي حاجة إليها تزيل الكبت الاقتصادي والسياسي والإجتماعي، وإننا حين نترك مبادئنا الأصلية، وننحيها جانبا نخلق بيدنا الفراغ الذي نتيح للمباديء الواردة أن تسده، ونشجع الذين يبحثون عن المباديء أو وسائل لتقويم حياتهم. إن المنطقة من الأرض التي يتخلخل هواؤها تندفع التيارات إليها من كل ما حولها حتى لتراها تصطرع وتعصف بما فيها[٢].

وللزمن من الأهمية مايلفت القرآن أنظارنا إليه بصورة جد ملحة، فالله يقسم مرة بـ : ﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ ومرة ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴾ ومرة ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ ومرة ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ ومرة ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾.[٣]

هذا القسم بالزمن بكافة أوقاته يدل على أن القسم به شيء له جلاله وخطره

---

(٢) الدكتور عبدالمنعم النمر في الإسلام والمبادىء المستوردة ص٧١. مكتبة وهبة.

(٣) كلها أسماء سور بجزء عم يتساءلون

إذا أضيف إليه قوله تعالى: ﴿**وجعلنا النهار معاشا**﴾ وغيرها حتى أن الإنسان ليسأل يوم القيامة عنه. يقول رسول الله ﷺ: (**لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه؟ وعن شبابه فيم أبلاه؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ وعن علمه ماذا عمل فيه؟**)[1] وقوله صلى الله عليه وسلم: (**ألا وإن الدنيا قد أذنت بفراق، ألا وإنه اليوم المضمار وغدا السباق، ألا وإن الغاية النار، والسابق من سبق إلى الجنة**)[2]

ومن علامة إعراض الله عن العبد اشتغاله بما لا يعنيه، وإن امرؤ ذهبت من عمره ساعة في غير ماخلق له لجدير بأن تطول عليها حسرته، ومن بلغ الأربعين ولم يغلب خيره شره فليتجهز إلى النار.

ويقول الإمام على رضوان الله عليه: «من أمضى يوم في غير حق قضاه، أو فرض أداه أو مجد بناه، أو حمد حصله، أو خير أسسه، أو علم اقتبسه، فقد عق يومه».

ولما للدهر من قدسية لدى المسلم. يقول الله عز وجل في الحديث القدسي: (يؤذيني ابن آدم يسب الدهر، وأنا الدهر بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار).

ومن الحث على الاعتبار بالزمن مانراه من توجيه القرآن الأنظار إلى السير في الأرض والتأمل في بدء الخلق ﴿**قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق**﴾ وفي كلمات عذبة حول قيمة الزمن يقول الشيخ محمد الغزالي: «إن كل مفقود عسى أن تسترجعه إلا الوقت فهو إن ضاع لم يتعلق بعودته أمل» ولذلك كان الوقت أنفس ما يمتلكه الإنسان، وكان على العاقل أن يستقبل أيامه استقبال الضنين، والثروة الرائعة، لايفرط في قليلها ولا كثيرها، ويجتهد أن يضع كل شيء منها صغر أم كبر موضعه اللائق به فما فات لا يعود والمرء محاسب على عمره قصر فيه أم ضيع. يقول تعالى:

---

(١) الترمذي وقال حديث حسن صحيح الترغيب جـ٤ ص٢٤٦

(٢) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس آية ٤٥]

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ [الروم آية ٥٥]

إن شأن الناس مع الدنيا غريب يلهون والقدر معهم جاد، وينسون وكل ذرة من أعمالهم محسوبة عليهم ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ [المجادلة آية ٦] إن المسلم الحق يغالي بالوقت مغالاة شديدة، فالوقت عمره، فإذا سمح بضياعه وترك العوادى تنهبه فهو ينتحر بهذا المسلك الطائش.

إن الإنسان ليسير سيرا حثيثا إلى الله، وكل دورة من دورات الفلك تتمخض عن صباح جديد ليست إلا مرحلة من مراحل الطريق التي لا توقف منها أبدا.

والإسلام دين يعرف الوقت ويقدر خطورته، لكن الزمن الذي يغضن الجباه ويطوي الأجيال، ويفني الحضارات، هو نفسه فرصة الأذكياء لفعل الخير وادخار مايجدى.

أما الذاهلون عن هذه المعاني فهم حمقى، إن عمرك رأس مالك الضخم وسوف تسأل عنه يوم القيامة. ومن الحكم: «الواجبات أكثر من الأوقات» والزمن لا يقف محايدا، فهو إما صديق ودود. أو عدو لدود ومن كلمات الحسن البصري:

مامن يوم ينشق فجره إلا نادى مناد من قبل الحق: «ياابن آدم أنا خلق جديد وعلى عملك شهيد فتزود مني بعمل صالح فإني لاأعود إلى يوم القيامة»

ومن استغلال الإسلام للوقت حثه على مداومة العمل، وكذلك حثه على التبكير في الاستيقاظ، وقد كان من دعائه صلى الله عليه وسلم: (اللهم بارك لأمتي في بكورها)[1] ومن الحكم: «نم مع الدجاج واستيقظ مع الغراب».[2]

---

(١) الحديث أخرجه الأربعة وحسنه الترمذي وصححه ابن حبان.

(٢) خلق المسلم للشيخ محمد الغزالي ص٢٧٤، دار الكتب الحديث ط ثانية.

الأسباب الحقيقية لهذه الفراغات الأخيرة

١ ـ صراع التيارات والأفكار في البلاد الإسلامية

جو الخلاف على غير أساس حقيقي، أو مع عدم وضوح الوجهة الصحيحة لمسيرتنا الإنسانية جو أفرزته نظرات مغبشة عن الحياة والأحياء والدين والاجتماع والاقتصاد والسياسة، منها ما يميل إلى اليمين، ومنها ما يميل إلى اليسار، ومنها الأصيل والزائف والنافع والضار، والبلاد الإسلامية تعج بهذه التيارات المتصارعة فكريا وعقديا وسياسيا.

وعندنا مؤيدو القديم بحذافيره وبمظاهره التي بعضها لا يقدم ولا يؤخر، وعندنا مؤيدو التغريب حتى الأذقان الذين يريدون منا أن نقطع صلتنا بماضينا حتى لغة الكتابه والنطق، وهويتنا الجغرافية، ونحن في نظرهم أجزاء من أحواض لها هويات ينبغي علينا أن ندور في فلكها. مثل دعوة فرنسة مصر بحجة أنها من حوض البحر الأبيض المتوسط، والأمر في حاجة منا إلى موقف واع يأخذ من القديم والحديث ما يقيم حضارة على أسس صلبة من دين الله وهدي السلف، وخاصة أن الإسلام يدفع إلى العلم، وينادي به، وبعده جهادا في سبيل الله، ويكافيء السائر في طريقه بوضع الملائكة أجنحتها لطالبه واستغفار الحيتان في بحارها له، والإسلام لايصادر التقدم ولا يمنع التطور، وكل ما نبتغيه أن تواكب أصوات الماكينات حياة الضمائر وثراء المادة ثراء الروح، والمعرفة بخواص المادة المعرفة بذات الله وصفاته ودينه.

ومن المعلوم أن لكل وقت ما يناسبه وأن الحرب في الحديث تختلف آلاتها عن القديم، وأساليب العيش في القديم في المنام والطعام والشراب واللباس أساليب تختلف عما عليه الناس الآن، ولكن أنصار الاتجاهات المشتتة لهم دوي وأصوات عالية وجرائد ومجلات وكتاب ومنتديات. ولكل من هؤلاء مناصروهم من شباب أمتنا في كثير من الأحيان على غير فهم ووعي، ربما بالرغبة في التجديد. ربما بنوايا

سيئة أو حسنه أو ولاء وتبعية طريق شاق وفكر مشتت وقلة معرفة بالدين أو بغيره من المذاهب واتباع لكل ناعق.

وحتى الاتجاهات الإسلامية التي تتزعمها جمعيات أو أمراء الجماعات لاتخلو من الفرقة فيما بينها إلى حد تكفير أفرادها بعضهم لبعض، والمبالغات هنا وهناك تضخم صغيرا وتصغر كبيرا، وبعضها الدين لديه سواك ولحية وعذبة وكفى، وبعضها لباس قصير وكفى، وبعضها إعلان البراء والولاء وكفى . . . وحبذا لو تدبر المسلمون ما يحيط بهم وتكتلت جهودهم ليواكبوا عصر التقدم ويحاربوا البدع والخرافة وكبريات المناكر.

وكل ما سبق ينضح على عقول الشباب آثارا سامة وضارة، ونحن في غفلة عما يبيته لنا أعداؤنا، وليتنا نقرأ ماكتب مما يكشف مخططات أعداء الإسلام والمسلمين من مثل الكتب التالية: التبشير والاستعمار والغارة على العالم الإسلامي، وحصوننا مهدده من داخلها، دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين وغيرها من الكتب النافعة الجادة، وليتنا ندرك أن هناك جهات يهمها توسيع الشقة بين المسلمين حتى لا يلتئم لهم جمع ولا يتفق لهم رأي.

وهناك فرق كبير بين الصراع من أجل الغلبة أو الأمور المادية والدنيوية، ذاك خلاف من أجل أغراض دنيا مصيرها التراب والفناء، فأما الاختلاف من أجل اكتشاف أنضج الأراء وأقوم السبل فهذا مالا نعرفه حتى الآن.

نحن لا نعرف تكتيل كافة الاتجاهات لخدمة المصالح القومية والدينية وفي نفس الوقت نحمل معاول الهدم عند أية بادرة من بوادر الخلاف، وننسى أن الاختلاف في الرأي إن كان الحق رائده فلا بد من الالتقاء عند نقطة ما فيصح رأي أو رأيان ويسقط مالم يكتب له الصحة، وفي سيرة سلفنا أمثلة حية من الاختلاف على جمع القرآن ما بين مؤيد ومعارض، ثم انشراح الصدور لجمعه، والاختلاف حول حروب الردة، ثم انشراح الصدور لمحاربة المرتدين.

وفي عصرنا الذي نعيشه يختلف الشيوعيون، على أسلوب العمل ولا يختلفون على الهدف وهو خدمة الشيوعية ونرى في أمريكا وأوربا خلافات بين الأحزاب في الرأي ولكن المصلحة الوطنية في النهاية هي الهدف والغاية.

وفي إسرائيل يحتدم النقاش ويشتد الخلاف ولكن الحفاظ على إسرائيل وإفناء العرب في الأرض المحتلة عن آخرهم هدف متفق عليه.

فليتق الله كل من تصدر للقيادة في السياسة أو في الفكر أو في التربية، وليعلم أن وراءه أتباعا لهم جرائر يؤخذون بها، ويؤخذ هو بجرائرهم جميعا، ولنعمل على التجمع لا على التمزيق، فإن الأمة لا تقدر على تطبيق دينها إلا وهي مجتمعة، ولا على قتال أعدائها إلا وهي متآلفة متحدة.

٢ ـ غياب التخطيط الذي يوجهنا إلى وجهة فكرية متناسقة

لا نجد إذا نظرنا حوالينا أمة بذرت فيها بذور الفرقة الفكرية بنظام وبذكاء مثلما، فعل بأمتنا، ولا أمة يغيب فيها الهدف العام للجميع حتى لا يعرف كل منا هدفه الأسمى مثلنا والأمم الحية فعلا تدرك أن التلقائية والعشوائية يجب أن تشطب من قاموسها، فهناك وزارات ومجالس متخصصة ومعاهد أبحاث ولجان في الوزارات، كل همها التخطيط الجيد من الناحية النظرية، والتنفيذ الجيد من الناحية العملية وملاحظة الأخطاء، وإلقاء الضوء عليها، واحتواء أخطائها حسب خطط يشترك فيها المفكر والأديب والمربي والطبيب والاجتماعي والنفسي، كل ذلك من خلال هوية خاصة لا ترقيع ولا تزوير ولا تنافر ولا تمزق.

وعندنا في بلاد إسلامية كثيرة نمطان من التعليم يختلفان منذ البداية، وفي بعض بلادنا توجد هوة واسعة بين التعليمين، لدرجة اتهام كل منهما للآخر، وذلك هو مايسمى بالتعليم المدني، وما يسمى بالتعليم الديني. لقد غاب عن المخطط أنه مع استمرار الوقت سوف يتربى في الأمة جناحان أحدهما: يسم نفسه بالتقدمية والعلمية ويسمى الآخر بالرجعية، وفي نفس الوقت يسمه الآخر بالتفرنج أو

الإلحاد، ويسم نفسه بالتدين، وقد عمل الاستعمار في بعض البلاد كمصر مثلا على توسيع شقة الخلاف بين ممثلي التعليمي وإشاعة النكات حول ممثلي التعليم الديني وبذر بذور الخلاف بينهما.

وكان من الممكن أن يكون المجرى في الأصل واحدا يتشابه الجميع فيما يتلقونه من قرآن وسنة وفقه وسيرة ورياضيات وتوحيد . . الخ حتى تتعمق المشاعر الدينية وينال الدارس قسطا وفيرا من العلم الإسلامي في الابتدائي والإعدادي وبعض صفوف الثانوي، ومن آراد السير في الطريق الديني إلى منتهاه يبدأ التخصص في أواخر الثانوي، ومن آراد السير في الطريق المدني من طب وغيره سار في طريقه إلى نهايته والمهم أن تكون هناك فرصة واسعة للتجانس والتفاهم، وجمع شباب الأمة حول الهدف الواحد وحسب خطة تجمع شباب الأمة على كلمة سواء، وحبذا لو كان ذلك على مستوى جامعة الدول العربية أو رابطة العالم الإسلامي، فكلما اتسعت الدائرة كلما كان ذلك أدعى للإجادة وأقرب إلى الصواب، فلا تختلف المناهج من شرق الوطن العربي إلى غربه، ومن شماله إلى جنوبه، ومن قلبه إلى أطرافه، مع أن الميادين الرحبة في بلاد الإسلام تحتاج إلى تخطيط ذكي وتنفيذ على مستواه، فأما ترك الأمور على حسب الريح أو وفق ضربات القدر فذلك مالا يجوز في عالمنا الذي نعيش فيه، فإن التخطيط جزء من الإسلام إذ يعرف المسلم ما يقضيه في العمل وما يقضيه في العبادة وما يقضيه في الراحة.

وتعرف الدولة ما تزرع وما تصنع، ورسول الله في حياته في سلمه وفي حربه وفي هجرته خير شاهد على ما أقول.

وحين غاب التخطيط في حياتنا تبددت طاقات شبابنا، واختلفت وجهاته، وبات كل حزب بما لديهم فرحون.

٣ ـ انعدام الطموح

نتيجة طبيعية من نتاج الفراغ الفكري، وشيوع الرتابة أن يقل التطلع إلى

الأعمال الجليلة ويصبح الميل إلى السهل هو الأعم الأغلب، ويغدو المجهول مشطوبا من حياتنا مع العلم بأن كثيرا من المجاهيل هي مقدمة لكثير من المعلوم وسبيل إلى بناء الأمجاد، فعن المجهول بحث خريستوفر كولمبس فاكتشف أمريكا، وعن المجهول بحث بلهارس فاكتشف البلهاريسيا، وعن المجهول بحث الرازي فاكتشف الحصبة والدورة الدموية . . الخ ولو عاش الناس يطحنون المعلوم ويغربلونه لتهرأ في أيديهم وأصابت حياتهم الرتابة والملل، وأمتنا تخاف البحر والليل والظلام والأشباح ويقر في قرار الكثيرين أحلام ورأى وأقاصيص عن العفريت والجن وأم الغولة . . الخ.

وأمة هذا شأنها يستعصي عليها المجد، ويتفلت من أيديها التقدم، لقد تسابق الروس والأمريكان إلى صعود القمر، وكنا نحن نتسابق في دحض فعلهم، وبعضنا لا يصدق، أو بعضنا يضع آيات القرآن في غير موضعها حتى يؤيد هذا الرأي أو ذلك.

لقد كنت أرى الربان الفرنسي «كوستو» وهو يستكشف مجهولات القارة القطبية بأسماكها وحيواناتها فأرمقة بإعجاب وهو فوق الستين، وأرى غيره وهم يقيمون في الغابات بين الوحوش والحيتان، وأعجب من هذه الجسارة وهذا الطموح، وأقول: إنها البيئة إنها التربية، إنها الثقافة، إنها النفوس الممتلئة بالرغبة في المعرفة ولو كان في ذلك حتفها.

فأما شبابنا فإن غاياته تدور حول الوظيفة الميرى، أو أصبح يكره الميري لأنه لا يدر كسبا معقولا، أو غايته مبلغ من المال يجهز به الدون من الحياة، فأما الطموح إلى الغايات العلا أو الأهداف الكبرى فقلما نتجه إليه، وأن كثيرا من أبنائنا يستكين ويركن إلى أهله ماداموا ينفقون ويربون ويطعمون، ولايريد تكليف نفسه شيئا. إنه لا يريد أن يتعب ويغب ويخط لنفسه طريقا في الحياة معتمدا على نفسه، ولا تستهويه أنباء النجاح من هنا وهناك، وأخبار العصاميين من العلماء وأصحاب الزعامات والثروات، ومادام الأمر كذلك فسوف تبقى «محلك سر» إنني أذكر تفرق أصحاب

النبي ﷺ في الأمصار المفتوحة، وبقاءهم بها وموتهم فيها وهو يعلمون ويرشدون فأرى الفرق بيننا وبينهم كبيرا وقد قيل:

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام

وآراني مسوقا إلى تساؤل. لماذا يخترعون ولا نخترع؟ ويستبقون ولا نسبق؟ وإدخال الجواب: إنها روح المثابرة، إنه الجد، إنه التفرغ لموضوع ما وقتله بحثا وتمحيصا والصبر على مشاقه دون أن يأبه الواحد منهم بنفسه أو بزيه أو ببيته، وإنما المهم هو أن يصل إلى الغاية التي نصبها هدفا لنفسه، إنها البيئة تصنع العباقرة، وهناك أمور مساعدة على انعدام الطموح إلى جانب الفراغ الفكري ومنها:

أ - شيوع روح الخمول والكسل والرضا بالدنية مع أن القرآن يرشدنا إلى ألا ننسى نصيبنا من الدنيا يقول تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾[1] ويقول: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾[2] كما أن الزهد بمعنى الفقر ومخاصمة الحياة، وترك التملك معنى غريب على الأمة الإسلامية التي تدرك أن المال عصب الحياة فيه مع غيره تعمر الأرض، وتجيش الجيوش، وتشيد الحضارات.

ب - وهناك أيضا ما يشبع إلى كثير منا التغني بالأمجاد وترديد أحلام اليقظة دون أن تكون هناك رغبة فعلية في العمل حتى أصبح يشيع عنا أننا لا نصلح إلا للنظريات فقط، فأما الجوانب العملية فإن الواقع على الأقل ودعوى أعدائنا ينبئان عن بعدنا قليلا أو كثيرا عنها.

٤ - أثر الثقافات الرديئة

إن نظرة إلى مناهجنا أو وسائل أعلامنا ترينا إلى حد كبير كيف أننا نهيء بأنفسنا الجو الرديء الذي يتنفس منه شبابنا، فمناهجنا العلمية

---

(١) القصص آية: ٧٧

(٢) الأعراف آية: ٣٢.

والتربوية مازالت تعمل على حشو أدمغة الناشئة بالمعقول وغيره، والمراد وغيره، ووسائل إعلامنا تحوى صفحات عدة عن قصص المغنيين والممثلين من الشرق والغرب وعن نبش قبور البعض، فأما الأدب الرفيع، والثقافة النافعة، وأخبار العلم وتاريخ العلماء وجهادهم فقليلا مانقرأ قلة لا تشفى الغليل ولا تميط الجهل وهناك بعض محطات التلفزيون تصر على الإتيان بالمشاهد كلها متناسية الصغار والشباب، كما أن بعضا آخر يصر على إتحافنا بالمسلسلات الأجنبية دائما بداع وبدون داع، وكأن من يعيشون من الأجانب بيننا أصبحوا أوصياء علينا.

وبعض ألوان المعرفة يترك في النفوس من التطير والخمول مثلما تتركه الأغذية الفاسدة في الأجسام، وحقيق بنا أن نبحث مصادر المعرفة التي توجهنا وأن نتدبر فعلها في مشاعرنا وأفكارنا، وأن نستيقن أولا مبلغ ما فيها من حق فمن يدري؟ ربما كانت وهما لاسناد له، وما أكثر الأوهام التي يسير عليها الناس.

٥ ـ ضعف الاهتمام بالنواحي العلمية

يغلب على الدراسة لدينا الجانب النظري، ونسبة الدارسين في الحقوق والآداب قد تفوق نسبة الدارسين في كليات الجامعات كلها، ذلك أن الغالبية العظمى منا مازالت تميل إلى الجانب النظري، بل إن نسبة حملة الشهادات العالية عندنا تفوق مثيلتها فى أمريكا، فالمهم شهادة جامعية وكفى، فأما جدواها للوطن وللأمة فشيء ليس في الحسبان. ولا بد من الاهتمام بالجانب العلمي من العلم عن طريق إلحاق الورش والمصانع بالمعاهد حيث يكون العمل والتطبيق إلى جانب العلم وبهذا تستفيد الأمة من طاقات شبابها، وتسد جزءا كبيرا مما تستورده أو مما تصدره فتكسب ساعات عمل بلا شك مما يحسب في تحضرها، ويتعود الشباب على العمل والإنتاج، كما تكون هناك فرص للابتكار وتنمية الطاقات العملية لدى الشباب، فإن

كثيرا مما يستورد يمكن صنعه بأيد وطنية، فتوجد فرصة للتقدم وتوفير المال العام وإحياء روح المثابرة على العلم والعمل.

والعالم الآن يتجه إلى النواحي النافعة من تصنيع وزراعة وتجارة، وتوجد مجتمعات بدأت رحلتها الحضارية معنا في العصر الحديث، ولكن مسافة التخلف بيننا وبينهم كبيرة جدا، ذلك لأنهم بدأوا بدايات صحيحة، وبدأنا بدايات خاطئة ذلك لأن المناخ هناك كان أقدر على اكتشاف الأخطاء قبل استفحالها وعلاجها فأما لدينا فقد تحولت الأخطاء إلى أخطبوطات وسرطانات. البرء منها ضرب من المستحيل.

وعلى الحكومات أن تستيقظ لذلك، فإذا ظلت مغضية الطرف عن الخطأ فعلى الناس أن يقوموا بتقويم أخطائهم إذا كان في مقدرورهم ذلك.

أما أن نبقى محلك سر لازراعتنا كافية رغم سعة الأرض وكثرة البشر، ووجود الماء وتوفر السوق، ولاصناعتنا تعتمد على ما نصنعه من مكائن، ولا بنزولنا نستخرجه بأيدينا، ولا سلاحنا نصنعه بأنفسنا، فذلك ضرب من الهوان والتبعية.

وأول خطواتنا على درب البناء أن نتحرر في طعامنا من تأثير الغير، وبذلك نشعر أن أرواحنا بأيدينا، ونواصينا محررة من ربطة لقمة العيش.

٦ ـ انعدام تصور عام عن حركة التاريخ وخطورة الزمن

للتاريخ دورته وحركته وهنا أسباب للازدهار والانحدار، وللأيام دول، وحركة التاريخ في أي عصر متشابكة لدى الأمم التي تعيش عصرا واحدا وعلينا أن نعي أسباب السقوط وأسباب النجاح، سواء كانت من الداخل أو من الخارج، وسواء كانت أخلاقية، أم عقدية، أم سياسية، أم اقتصادية، وهذا لا يتأتى إلا من خلال دراسة وتأمل.

إن كثيرا من الشباب المسلم يتمنى أن يصلح بلاده، ولكن عيبه أنه يظن أنه يعيش في قرية نائية لا تتأثر بغيرها ولا تؤثر فيه، ولذا فهو يغفل عن المؤثرات الداخلية والخارجية، ولا يقدر المؤثرات والتيارات التي تعمل عملها، سواء أكانت داخلية أو خارجية، تستفزه هو أو تستفز التيارات المعادية له، قد تنصره وقد تنصر عليه، وهي تتدخل خفية وقد تتدخل علانية، قد تثير الحفيظة بالتقارير المفرضة عن هذا وذاك.

وعلى الشباب وعي الدرس من حركة التاريخ. كما أننا عجلون دائما. أصواتنا عالية مبحوحة، وعقائرنا صارخة دائما، نتمنى إصلاح مافسد في عشرات السنين في يوم وليلة، فكيف ذلك؟ ولتكوين العادات الخلقية والأنماط النفسية قوانين تحكمها وتستغرق السنين ذوات العدد، فكيف بالله نتعجل؟ ولا نضع الزمن في حسابنا حيث يصطنع للحق أشياع وأنصار، ويكثر عدد المتعاشين عليه وله، فالحق المجرد تحميه القوة ويصونه الأعوان والأنصار، ولا يغني المنطق في مواجهة المدفع، ولا السكين في مواجهة الصاروخ، ولا الخطب في مواجهة البارود.

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف في موضع الندى

وأخيرا وفي كلمات موجزة: إن فراغ الوقت لدينا مما يشغله شغلا حقيقيا وفراغ الأنفس من الأهداف السامية والعملية، وفراغ الرءوس مما يملأها علميا وأدبيا آفات تجب معالجتها، فأما الوقت فهو وعاء الحضارة، وكل حضارة هي نتاج مجموع الساعات التي يعملها شعب ما

وأراضينا كثيرة، ومياهنا أيضا كثيرة، وبحارنا وأنهارنا كثيرة ـ وحبذا لو وجهنا الناس إلى الزراعة وشققنا لهم الترع وأوصلنا الكهرباء ورصفنا الطرق إلى حقولهم. حبذا لو فعلنا ذلك فشغلنا الناس بعمل جيد لإنتاج ما يستهلكونه وبيع ما يزيد عن حاجاتهم، وتوفير العملة التي يشترى بها هذا لو لم يزرع في بلادنا، وأحيانا تكون الزراعة وما يقوم عليها من صناعات أجدى من الالكترونيات فالمرء يستغني عن الراديو ولا يستغني عن الرغيف . . الخ وإلا فمن العيب جدا أن يوجد الماء والأرض والناس ولا يوجد الخبز، والأرض العربية في حاجة إلى جهد العرب والمسلمين، فأما

الانكسار والهوان وعدم وجود هدف يسعى له المسلم فيجب أن ينقصي عصره وبأسرع مايكون

إن اليهود في العالم يحملون هم إسرائيل، فلم لا يحمل المسلمون في العالم هموم أنفسهم؟ ويسعون لبناء مستقبلهم، ويدرك كل منهم أنه جزء يتأثر بما يحيق بأمته من تقدم أو تخلف، وأين البرامج التي تعلي من أهدافنا بغير نفاق؟ وتدلنا على مواقع أقدامنا بغير غش، حدثني أحد الإخوة في الستينات عن أنه عد في رحلة لا تزيد مسافتها عن ٣٠٠كم ٢٨٠ مصنعا، وأدركت لفوري أن الرجل يكذب أو كذب عليه، فإذا وجد هذا الكم من المصانع فأين إنتاجه؟ وكيف نشكو من كثرة النسل وعندنا هذا الكم من المصانع؟

فأما فراغنا العلمي فيحتاج إلى جمهرة العلم، أي جعله في متناول الجماهير، أو تأميمه حيث تشترك فيه جميع الأمة في صورة كتب وكتيبات ونشرات وصحف ومؤلفات وملصقات وشرائط كاسيت . . الخ حيث يرتفع المستوى العام للأمة وتتغير صورة العلم في أذهاننا فيصبح علما للدنيا للعمل به لا علما نظريا للجدل والافتخار به، وتلك هي أولى خطوات علمية المجتمع كما حدث في اليابان وأوربا وأمريكا.

وأرجو في نهاية هذه النظرات أن أكون قد أصبت في بعض منها في أن أرفع صوتي بنصيحة لأمتي، فهذا بعض حقها علي، كما قال الرسول الكريم: الدين النصيحة.

مراجع البحث

١ القرآن الكريم

٢ ملخص تفسير ابن كثير — للصابوني — دار القرآن بيروت ط سابقة ١٩٨١

٣ اللؤلؤ والمرجان — محمد فؤاد عبدالباقي — المطبعة العصرية للكويت ١٩٧٧

٤ الترغيب والترهيب — للحافظ المنذري — ط الأوقاف المصرية

٥ تمييز الطيب من الخبيث — لابن الربيع الشيباني — ط محمد علي صبيح ١٩٦٣

٦ إحياء علوم الدين — للإمام الغزالي — ط التجارية بمصر

٧ الإسلام والشباب — للباحث غير مطبوع

٨ النبوة والأنبياء — لأبي الحسن الندوي — ط خامسة ١٩٨٠ دار القلم

٩ المسلم في عالم الاقتصاد — مالك بن نبي — ١٩٧٨ — دار الشروق

١٠ الإسلام والمباديء المستوردة — الدكتور عبدالمنعم النمر — بدون — مكتب وهبة

١١ الإسلام ومشكلات الحضارة — الأستاذ سيد قطب — ١٩٦٢ — عيسى الحلبي بالقاهرة

١٢ جدد حياتك — للشيخ محمد الغزالي — بدون — دار الكتب الحديثة بالقاهرة

١٣ خلق المسلم — للشيخ محمد الغزالي — بدون — دار الكتب الحديثة بالقاهرة

١٤ تذكرة دعاة الإسلام — لأبي الأعلى المودودي — ١٩٨٥ — دار العدالة للطباعة بالقاهرة

١٥ دروس في العمل الإسلامي — سعيد حوى ط أولى — ١٩٨١ — دار الوثائق

١٦ حكم بن عطاء الله السكندري
شرح الرندي / تحقيق د/ عبدالحليم محمود، د/ابن الشريف ١٩٧٠ — دار الكتب الحديثة

١٧ مع الله دراسات في الدعوة والرعاة — الشيخ محمد الغزالي

١٨ المؤتمر الثاني لمجمع البحوث الإسلامية — مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر